من مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان

د. دين محمد *

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين، وبعد.

فلقد نشطت في العصر الحديث الدراسات المتعلقة بالأديان العالمية، والمذاهب الفكرية المختلفة، والفلسفات الدينية المتعددة نشاطا ملحوظا. وزاد اهتمام الباحثين والعلماء بها زيادة كبيرة، وأصبحت في جامعات العالم أقسام متخصصة لمباشرة هذه الدراسات باسم مقارنة الأديان.

وبما أن العقيدة الدينية أخص خصائص الحياة الإنسانية، وأعمق ما يحرك عواطفه، وأقوى ما يوجه ميوله الفكرية، وأخصب ما يهدي توجهاته الروحية فإن الاهتمام بها لا يمكن أن يثير الاستغراب. وبما أن تقدم الحضارة الإنسانية قد ضيقت المسافات بين البلاد، وأزالت الحواجز بين ثقافات العباد، وجعلت المصالح المشتركة ضرورة حيوية بين الشعوب والمجتمعات على ما بينها من تفاوت في مستوى المعيشة، واختلاف في منهج التفكير، وتنوع في النوازع الدينية، وتعدد في الاتجاهات الفلسفية فإنه يصبح من الضروري أن تتجه الاهتمامات إلى أديان العالم المختلفة تحاول دراستها وفهمها مع اختلاف في الأهداف والأغراض، وتنوع في المسالك والمناهج.

وإذا كان الفكر الغربي ـ وتبعا لذلك الفكر الشرقي غير الإسلامي ـ قد بدأ اهتمامه بالأديان العالمية منذ فترة قصيرة نسبيا ولا تتعدى قرنا واحدا إلا بقليل فإن الفكر الإسلامي قد وجه اهتمامه إلى هذا الميدان منذ اللحظة الأولى لظهور

* الأستاذ المساعد بقسم العقيدة ومقارنة الأديان كلية أصول الدين ـ الجامعة الإسلامية العالمية ـ إسلام آباد.

الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولا إلى الخلق أجمعين يدعوهم إلى التوحيد، ويطالبهم بنبذ ما هم عليه من عقائد فاسدة قوامها الأوهام، ومذاهب منحرفة كيانها الأساطير.

والقرآن الكريم الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فيخرجه من حيرته، ويحميه من انحراف فكره، وينتشله من قاع ضلالات نفسه، ويهديه إلى سواء السبيل بالحجة والبرهان كان خير هاد للمسلمين في هذا الطريق عندما سرد ـ بأسلوبه المعجز ـ ما تمسك به أو يمكن أن يتمسك به كل صاحب فكر مخالف لما ورد به القرآن الكريم وناقشه مناقشة موضوعية ليظهر الحق بأجلى بيان وأوضح برهان ثم يترك الإنسان بعد ذلك يتحمل مسؤلية اختياره، وتبعات توجهه لأنه **{قد تبين الرشد من الغي}**.[١]

ولعل من احدى وجوه شمولية القرآن الكريم إنه ناقش العقائد المختلفة وعر ض موقفه في مواجهتها في إطار يمكن أن يستوعب كل ما يمكن أن يجد من فلسفات ومذاهب دينية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولم ينس علماء المسلمين واجبهم نحو الإنسانية، فعندما ثبتت دعائم الحق، واستقرت بالمسلمين الأوضاع بدأ أولئك العلماء جهادهم وجهودهم لتبصير المنحرفين، والأخذ بيد الحائرين، وتوضيح الحق وتيسيره للطالبين بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة مستقين من القرآن الكريم أصول مناهجهم، ومعالم مواقفهم، ومستندين إلى الأسوة الحسنة الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مسالكهم ومعاملاتهم.

وإذا كان تبنى الموقف القرآني الحاسم **{إن الدين عند الله الإسلام}** قد اقتضى منهم موقفا علميا واضحا من كل ما يخالف الإسلام وكذلك الدعوة إلى التوحيد استلزم بيان ضلال كل ما يتناقض معه من عقيدة وسلوك، فإن الإيمان بعالمية الدعوة الإسلامية تطلب فهما دقيقا لجميع الأديان والمذاهب التي كانت تتبناها المجتمعات المختلفة كمقدمة ضرورية نحو شرح فسادها وانحرافها ثم أحقاق الحق واضحا جليا. وهذا يعني أن خاتمية الإسلام وناسخيته لما سبقه من الأديان

---

١ ـ جزء من آية ٢٥٦ البقرة.

وهيمنته عليها جميعا وعالمية رسالته جعلت من أولى واجبات العالم المسلم الاهتمام بأديان الأرض دراسة وتحليلا ونقدا. وهذا الواجب هو ما قام به طائفة من علماء المسلمين وبذلوا في سبيل ذلك أنفس أوقاتهم وغاية جهودهم. وهي جهود كانت قد علقت في بداية الأمر بنشاطات علم الكلام ثم لأهميتها ولضخامة مباحثها تطور إلى فرع علمي مستقل باسم علم "الملل والنحل" وهو ما يعرف اليوم بعلم الأديان أو علم مقارنة الأديان".

وأصبح من حقائق التاريخ التي لا يمكن لأحد انكارها أو التنكر لها أن مقارنة الأديان - تلك الدراسة التحليلية النقدية للأديان بغض النظر عن الأهداف والمنطلقات - قد ظهرت كنشاط علمي له أصوله وقواعده، ومناهجه ومفاهيمه في العالم الإسلامي على أيدي علماء المسلمين الذين كان للقرآن الكريم فضل تنبيههم إليها، وجذبهم نحوها وإن كانت الظروف الاجتماعية مثل الاحتكاك بأهل الأديان الأخرى والتعايش معهم، وكذلك واجبات الدعوة والتصدى لشبهات الآخرين، والدفاع عن حظيرة التوحيد ومبادئ الإسلام كل تلك مجتمعة أو منفردة الأسباب المباشرة لبروز هذا النشاط العلمي لديهم.

وإذا كان الإسلام حضارة لها مميزاتها وخصائصها وما ينفرد بها فمن الطبيعي أن يكون للمسلمين في نشاطاتهم العلمية، وتوجهاتهم الفكرية وكذلك في سائر الميادين الاجتماعية منطلقات خاصة بهم، وأهداف تختلف عن تلك التي تتبناها الأمم الأخرى ذات الحضارات المختلفة، والاتجاهات الفكرية المتباينة.

ومن هنا كانت طبيعة علم الدين المقارن عند المسلمين مختلفة عن مثيلها في الفكر الغربي. وليس من منطق العلم أو العقل ولا منطق الدين أن تحاول حضارة معينة فرض اتجاهاتها ونظراتها على حضارة أخرى وإن كان من المستساغ عقلا، والمطلوب علما، والمفروض دينا أن تناقش الاتجاهات، وتفحص النظرات إذا رؤى مجانبتها للصواب، أو بعدها عن الحق وانحرافها عن الخط العلمي السليم. وهذا هو الأساس الذي نبنى عليه معارضتنا لمحاولات فرض الاتجاه الغربي في دراسة الأديان على الفكر الإسلامي وإن كنا نرحب بمناقشة الموقف الإسلامي ومناظيره ومناهجه وفق المعايير العلمية المقبولة، والقواعد العقلية الثابتة. وهذا الأساس مرة أخرى هو الذي نبني عليه مبدأ السماح لأنفسنا اخضاع النشاط الغربي واتجاهاته

ومناهجه للفحص العلمي والمناقشة المنهجية بدون أن نطالبهم بتبني مواقفنا أو اتجاهاتنا. فمن الغباوة إذن أن يتجاهل الفكر الغربي الجهود الإسلامية العلمية في مجال مقارنة الأديان ويتنكر لفضلها في تأسيس هذا العلم هذا التنكر وذلك التجاهل اللذين نجدهما بارزين في كتابات معظم علماء الغرب ومؤرخيه[٢]، كما أن من السذاجة أن يتنكر المسلمون لتلك الجهود المتميزة، والمحاولات المتبكرة التي بدأها الفكر الغربي في القرن الماضي في مجال مقارنة الأديان والتي تستمر بقوة ونفوذ إلى يومنا هذا بغض النظر عن مواقفنا نحن من اتجاهاتها أو الخلل المنهجي الذي تعاني هي منه.[٣]

وعلى كل حال، ليس هدفنا هنا هو الدفاع عن الأبوة الإسلامية لهذا الحقل العلمي وإن كنا نؤمن أنها قضية جديرة بأن تخصص لها دراسات علمية جادة، إنما هدفنا فقط الإشارة إلى هذه النقطة كمدخل لحديثنا عن المناهج الإسلامية أو المناهج التي استخدمها علماء المسلمين في نشاطهم العلمي في حقل مقارنة الأديان ذلك النشاط الذي يتطلب منا اليوم جهودا كبيرا للتأريخ له، وعمل ثبت علمي دقيق بإنجازاته.

مصادر مقارنة الأديان في تراث الفكر الإسلامي:

والحديث عن مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان يستوجب من الناحية المنهجية توافر حصر شامل لتراث هؤلاء الأعلام في هذا المجال. وبطبيعة الحال لا يستطيع أحد اليوم أن يدعي وجود مثل هذا الحصر، ولكن هذا لا ينبغي أن يمثل عائقا لنا، لأنه أولا ما لا يدرك كله لا يترك كله، وثانيا أن التراث العلمي المتاح اليوم ليس هينا كما وكيفا. وهو يمثل عصورا مختلفة، ومواقع جغرافية متنوعة. وهذا أمر لا يمكن الغض من قيمته، ولا التقليل من قدرته على إعطائه صورة

---

٢ ـ انظر لاعتراف بعض المنصفين بالجهود الإسلامية على سبيل المثال:
Eric J Sharpe: “Comparative Religion: “A Hsitory: “ London - 1975. P 2.

٣ ـ لقد تكلمنا عن الخلل المنهجي في علم الدين المقارن الغربي في بحثنا: "مشكلة المنهج في علم الدين المقارن في الغرب: (حولية الجامعة الإسلامية العالمية ـ إسلام آباد ـ العدد الأول).

صادقة شاملة لتوجهات الفكر الإسلامي في هذا المجال.

والحقيقة، أن مصادر مقارنة الأديان في تراث الفكر الإسلامي يمكن أن نجدها في أربع مجموعات رئيسية من الكتابات الأصيلة.

أولها: الموسوعات التاريخية التي لم يكن أهلها من علماء مقارنة الأديان بالضرورة وإن كان بعضهم ذا اهتمام منظم بها مثل المسعودي. ففي هذه المجموعة نجد أمثال الطبري في تاريخه العظيم المسمى تاريخ الرسل والملوك "والمسعودي في "مروج الذهب"، مع أن له كتابا أصيلا متخصصا لم ير النور بعد المسمى "المقالة في أصول الديانة"؛ والكرديزي عبد الحي بن الضحاك بن محمود في "زين الأخبار"(٤) والمقدسي في "البدأ والتاريخ"، والقلقشندي في "صبح الأعشى"، واليعقوبي في تاريخه. وهذه المصادر التاريخية المتقدمة وأمثالها تحتوي على معلومات كثيرة ودقيقة في أغلب الأحيان عن الأديان المختلفة وتمثل مراجع مهمة لدارس مقارنة الأديان، ولمن يتتبع الاهتمامات الإسلامية في هذا المجال.

وثانية هذه المجموعات هي كتب علم الكلام على اختلاف مدراسه، واتجاهات أصحابه. ومما لا ينكر أن بوادر نشاط الفكر الإسلامي في مجال مقارنة الأديان ترجع إلى علماء الكلام الذين أخذوا على عاتقهم مسؤلية الدفاع عن الإسلام تلك المسؤلية التي فرضت عليهم مواجهة ما حولهم أو ما يواجههم من الأديان والفلسفات والمذاهب. ولم يهتم علماء الكلام بالطبع من حيث كونهم متكلمين بالتأريخ للأديان منسجمين مع طبيعة نشاطهم العلمي الذي قال عضد الدين الإيجي أحد أعمدتهم في تعريفه بأنه "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية (المراد طبعا العقائد الإسلامية بخصوصها) بإيراد الحجج ودفع الشبه"(٥) وهذا عين ما ذكره ابن خلدون في فصله الممتع حقا عن علم الكلام في مقدمة تاريخه العظيم حيث قال: "هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية

---

٤ ـ ألفه بالفارسية، وترجمته إلى العربية الدكتورة عفاف السيد زيدان وظهرت الطبعة الأولى في القاهرة عام ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م. والكرديزي من علماء القرن الخامس الهجري.

٥ ـ ص ٣٤ ـ ٣٥ من الجزء الأول من شرح المواقف (منشورات الشريف الرضي طبعة مصورة على الطبعة الأولى لسنة ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م مطبعة السعادة ـ مصر).

والرد على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وأهل السنة".[٦]

وكانت مناقشات المتكلمين في أغلب الأحيان لخصومهم في الرأي من الفرق الإسلامية. لكن هذه السمة الغالبة علي التراث الكلامي لا يجوز أن تحجبنا عن تلك المناقشات العلمية القيمة لكثير من معتقدات أهل الأديان الأخرى الأساسية التي نجدها في ثنايا كلامهم وتحليلاتهم. إن نظرة سريعة على النقاط التي اهتم بها المتكلمون بمناقشتها من عقائد أهل الأديان الأخرى مثل قضية النسخ، والوحي، والبعث، والتوحيد وهي قضايا جوهرية في أي نظام ديني وتستوعب أديانا كثيرة مثل اليهودية والمسيحية والهندوسية والمجوسية ومذهب أهل الشرك توقفنا على أهمية التراث الكلامي في هذا الميدان.

ومن هنا، فإن أي باحث يرصد تاريخ علم مقارنة الأديان في تراث الفكر الإسلامي لا يسعه إهمال هذه المجموعة وبخاصة أنها تمثل موقفا إسلاميا من ناحية، ومعالجة معينة للقضايا الدينية من ناحية أخرى. ولا يمكن أن يفوت الباحث ملاحظة أن أحد أهم الكتب لعلماء المسلمين في مقارنة الأديان وهو "المغني" للقاضي عبد الجبار كتاب كلامي في أساسه، كما أن كثيرا من المتكلمين تجاوزوا بإهتماماتهم الفرق الإسلامية المختلفة إلى الأديان العالمية يؤرخون لها أو يناقشونها مثل الشهرستاني وإمام الحرمين والغزالي والرازي وغيرهم.

وثالثة هذه المجموعات هي تراث تلك النخبة من العلماء الذين رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - نبيا ورسولا بعد أن كانوا علماء مرجعيين في أديانهم السابقة من يهودية أو نصرانية. وهذه المجموعة على الرغم من قلتها النسبية تمثل في الحقيقة ثروة علمية عظيمة في مجال مقارنة الأديان.

وأما المجموعة الرابعة والأخيرة فهي التي دبجتها يراعة أولئك العلماء الأعلام الذين ولوا إهتمامهم المتميز نحو الأديان دراسة وتأريخا، ونقدا وتحليلا. وهذه المجموعة الأخيرة هي التي نريد أن نعتمد عليها في بحثنا هذا لنعرض من خلالها لبعض مناهجها في دراسة الأديان بإعتبارها تراثا مستقلا متخصصا على الرغم من الفوائد العلمية الموجودة في المجموعات الثلاثة الأولى.

---

٦ - انظر: مقدمة ابن خلدون: الفصل الخاص بعلم الكلام.

إن تراث هذه المجموعة الرابعة وهي أول ما ينظر إليه عند الحديث عن علم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي يستوعب في الحقيقة أديان العالم المختلفة ـ، ويمثل أبرز المناهج المستخدمة في دراستها وعرضها أو نقدها وتحليلها. فمن أبرز ما وصل إلينا من تراث هذه المجموعة:

- الرد على النصارى للقاسم بن إبراهيم اليمني المتوفي عام ٢٤٦هـ.
- الرد على النصارى للجاحظ المتوفي ٢٥٠هـ.
- الرد على النصارى لأبي عيسى الوراق من القرن الثالث الهجري.
- بيان الأديان لأبي المعالي محمد بن الحسيني العلوي وهو باللغة الفارسية. وهو بمثابة قاموس لأديان العالم ومذاهبه بصورة مختصرة.
- الإعلام بمناقب الإسلام لأبي الحسن العامري المتوفي ٣٨١هـ.
- الأمد على الأبد لأبي الحسن العامري أيضا.
- المغني وبخاصة الجزء الخامس منه للقاضي عبد الجبار ٤١٥هـ.
- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني ٤٤٠هـ.
- الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني أيضا.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٤٥٦هـ.
- شفاء الغليل لإمام الحرمين ٤٧٨هـ.
- الرد الجميل للغزالي ٥٠٤هـ.
- الملل والنحل الشهرستاني ٥٤٨هـ.
- مقامع هامات الصلبات لأبي عبيدة الخزرجي ٥٨٢هـ.
- تخجيل من حرف الإنجيل لأبي البقاء صالح الجعفري ٦١٨هـ.
- الأجوبة الفاخرة للقرافي ٦٨٤هـ.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم.

وهناك ما لم نشر إليه مما وصلتنا كما أن هناك ثروة ضخمة من الكتب الإسلامية في المجال لا تزال مخطوطة في مكتبات العالم المختلفة، تلك الثروة التي تنبئ عن ذلك الإهتمام العظيم الذي حظى به هذا الجانب من قبل علماء الإسلام وتنتظر من يخرجها للناس في ثوب علمي محقق. إن الذي ينظر إلى هذه الكتب

التي أشرنا إليها يتأكد من ضمانها دراسة موضوعية جيدة لمناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان.

أصول منهجية لدراسة الأديان في القرآن الكريم:

لقد قلنا فيما سبق أن علماء المسلمين في نشاطهم في حقل مقارنة الأديان قد انطلقو من القرآن الكريم، ومن واجب الدعوة إلى الحق.

وهذا يجعل من واجبنا أن نقف قليلا عندما يمكن أن نجده في القرآن الكريم من أصول منهجية ترشد الباحثين، وتوجه العلماء. ويتجلى لمن يتدبر القرآن الكريم أنه يعتبر الإسلام هو الدين الحق، **{إن الدين عند الله الإسلام}**.[٧] **{ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه}**[٨]، ويعتبره الحلقة الأخيرة في سلسلة الرسالات الالهية، **{شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}**.[٩] وبالتالي لا يقبل شرعية أي دين من حيث الحقيقة، إنما الشرعية الحقية للإسلام فقط الذي أرسل به محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتما لما سبقه، ومصدقا له، مهيمنا عليه، قال تعالى: **{وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه}**.[١٠] ولكن هذا الموقف لا يمنع الإسلام من التسليم بالوجود الفعلي للأديان المختلفة، بمعنى أنه يؤمن بواقعية التعدد الذي لا يريد محوه بالقوة والإكراه لأنه **{لا إكراه في الدين}**[١١] و**{ولكم دينكم ولي دين}**.[١٢] ومن هنا كان حديث القرآن الكريم عن الحقوق والواجبات لأهل الأديان الأخرى، وبيان السنة النبوية المطهرة لها.

وإذا علمنا أن التسليم بالوجود الفعلي للأديان الأخرى وعدم إلزام الناس بالتخلي عنها بالإكراه لا يعني إضفاء الشرعية عليها ثم قارناه بالتصريح القرآني **{إن الدين عند الله الإسلام}** مع المطالبة القرآنية بالصدع بالحق الذي هو الإسلام **{قل إن هدي الله هو الهدى}**[١٣] لا تضح لنا جليا أن الاتجاه القرآني العام في

---

٧ - آل عمران: ١٩.
٨ - آل عمران: ٨٥.
٩ - الشورى: ١٣.
١٠ - المائدة ٤٨.
١١ - البقرة: ٢٥٦.
١٢ - الكافرون: ٦.
١٣ - البقرة: ١٢.

موقفه من الأديان الأخرى اتجاه نقدي علمي.(١٤) لكن هذا الاتجاه النقدي لا يعني في منطق القرآن الكريم الحط من شأن الأديان الأخرى بمعنى شن الحرب عليها واذلال أصحابها. صحيح أن القرآن الكريم يسفه مقالاتهم، ويحكم بضلال توجهاتهم، وانهيار أسس بناء عقائدهم، وانحراف مبادئهم. لكن هذا كله يبينه القرآن الكريم في إطار المنطق العلمي والحجج الموضوعية وهذا ما يقتضيه واجب الدعوة. وإن آثر أولئك بعد هذا البيان الاستمرار في تقليد أهوائهم، فإن الإسلام يتركهم أحرارا ليتحملوا مسؤلية اختيارهم أمام الله مطالبا المسلمين بالجهر بالإسلام. قال تعالى: **{فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن تبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد}**(١٥) **{وإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}**(١٦) وقال: **{ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون}**.(١٧)

فاتجاه القرآن النقدي ملازم لفلسفته في التبليغ **{لا إكراه}**، ولإيمانه بضرورة الإقناع والاقتناع، ولاستعداده للتعايش السلمي مع أهل الأديان الأخرى.

ويعزز هذا ما قدمه القرآن نفسه من مناهج للتعامل مع أهل الأديان الأخرى. وهي مناهج تحاول أن تأخذ بالرفق أيدي التائهين والمنحرفين إلى الصراط المستقيم إن كانوا مستعدين لذلك. فالقرآن الكريم إذن لم يحدد للمسلمين اتجاههم فقط إنما دلهم على مناهج يسلكونها - في إطار المنطق العلمي والحرية الفكرية - للتوصل إلى أهدافهم، ويطبقون من خلالها نقدهم ودراساتهم. ولعل هذه المناهج القرآنية تتلخص في:

- المجادلة بالأحسن.
- منهج المقارنة.
- منهج الحوار.

---

١٤ - انظر في هذه النقطة البحث القيم للأستاذ الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي: الإسلام والعقائد الأخرى "باللغة الإنجليزية: Al - Faruqi: "Islam and other Faiths" in "The Challenge of Islam '(ed, Altaf Gauhar, London: Islamic Council of Europe) 1978.

١٥ - آل عمران: ٢٠. ١٦ - آل عمران: ٦٤. ١٧ - المائدة: ١٠٥.

بالإضافة إلى حث القرآن الكريم على اصطناع المنهج التاريخي. وربما كان من الأنسب أن نقول إن المجادلة بالأحسن هو المنهج الأم الذي تمثل المناهج الأخرى وسائل تطبيقه.

ومهما يكن الأمر، فإن من المستحسن في هذا المقام أن نقف قليلا عند كل واحد من هذه المناهج لنتفهم طبيعته في حدود ما يتحدث عنه القرآن الكريم.

المجادلة بالأحسن:

لقد قال تعالى في القرآن الكريم: **{أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}**(١٨)، وقال: **{ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون}**.(١٩)

وليس المراد بالمجادلة هنا ذلك النشاط الفكري الذي يحاول الانتصار لوجهة نظر معينة والتغلب على الخصم أو قهره مهما يكن هو على الحق، ومهما يكن الرأي الأخر باطلا. أو قل إن المجادلة المأمورة هنا ليست تلك التي يقصدها المناطقة أو علماء آداب البحث والمناظرة إذ يقولون في تعريفها أنها "المنازعة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم"(٢٠) أو بعبارة الراغب الأصفهاني: "المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة"(٢١)، أن هذا يعتبره الإسلام مذموما وهو عند العقلاء عبث فكري، إنما المراد هنا تلك المجادلة المقرونة بوصف "الأحسن" الذي ذكر الشيخ زادة في توضيح معناه فقال: "... فلا تجادل معهم في أمر الدين إلا بأحسن المجادلة، وهو أن تبحث معهم بإزالة شبههم وتبيين الحق لهم بإقامة الحجة والبرهان وتلاوة

---

١٨ - النحل: ١٢٥. ١٩ - العنكبوت: ٤٦. ٢٠ - ص ١٨ شرح الرشيدية للشيخ عبد الرشيد الجونفوري على الرسالة الشريفية في آداب البحث والمناظرة للسيد الشريف علي الجرجاني (مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٦٩هـ ١٩٤٩م) مع تحقيقات وشروح للأستاذ علي مصطفى الغرابي. ٢١ - انظر مادة "جدل" ص ٨٩ من "المفردات في غريب القرآن" للراغب الأصفهاني أبي القاسم الحسين بن محمد (تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - بيروت - بدون تاريخ).

القرآن"[٢٢]. وهذا يتفق مع ما قرره إمام الحرمين في "الكافية في الجدل" عندما تحدث عن آداب الجدل وشروطه التي يمكن تلخيصها في خلوص النية بالتقرب إلى الله وطلب مرضاته، وبذل المستطاع في بيان الحق وكشفه وتوضيح الباطل وبيان فساده، وعدم القصد إلى الشهرة أو إلى الجاه، أو الرياء أو المماراة وعدم القصد إلى الظفر بالخصوم والسرور بقهرهم الذي هو في عبارة إمام الحرمين من دأب الأنعام الفحولة".[٢٣]

وهذا يبين أن المجادلة بالأحسن كمنهج قرآني تعني مناقشة موضوعية للقضايا المثارة بغية التوصل إلى الحق بدون تعد أو انحراف. وإذا وجد المسلم بعد أن جعل الحق واضحا ناصعا وأقام الحجة والبرهان على بطلان ما يتمسك به الآخر ـ تأبيا على الحق وابتعادا عنه من مجادله فإن القرآن الكريم يأمره بعدم الإيغال في الأمر، والتوقف عنده، ولذلك قال تعالى: {**فإن حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد**}[٢٤]، ومعنى {فإن حاجوك" على ما يذكره القاضي البيضاوي" فإن حاجوك في الدين وجادلوك فيه بعد ما أقمت الحجج".[٢٥]

صحيح أن القرآن الكريم يستخدم "المجادلة بالأحسن" للإنتصار لموقفه، لكن هذا لا يطعن في علمية موقفه أو موضوعية منهجه، لأن القرآن لا يريد الوصول إليه إلا بالحجة العلمية والبرهان العقلي، والا بعد مطالبة الخصم بتقديم ما لديه من حجج وبراهين إذا كان ما يتمسك به صحيحا {**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**}[٢٦]، فلا يجب أن ينظر إلى منهج "المجادلة بالأحسن" على أنه منهج غير محايد وأنه مقترن بفكرة مسبقة، لأن الإنسان إذا تبنى موقفا أو اعتنق عقيدة بعد قيام البراهين العلمية على صحتها فمن العبث بعد ذلك أن يتنكر لهذا الموقف

---

٢٢ ـ ص ١٤ من الجزء الرابع من حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير الإمام القاضي البيضاوي) (طبعة مصورة لدار إحياء التراث العربي على طبعة المكتبة الإسلامية ـ تركيا.

٢٣ ـ انظر ص ٥٢٩ من "الكافية في الجدل" لإمام الحرمين الجويني، تحقيق الأستاذة الدكتورة فوقية حسنين (عيسى الحلبي ـ القاهرة ١٣٩٩هـ).

٢٤ ـ آل عمران: ٢٠.

٢٥ ـ ص ٦١/٢ من الجزء الأول من حاشية الشيخ زادة علي البيضاوي.

٢٦ ـ النمل: ٦٤.

العلمي، بل إن المنطق العلمي يقتضى المحاولة الجادة، والسعي المتواصل لعرض هذا الموقف العلمي على الآخرين وإقناعهم به لا التنكر له وإن كان القرآن الكريم لا يمانع في التنزل مع الخصم وتجاهل الموقف الحق مؤقتا لأجل إمضاء المناقشة إن كان هذا يساعد في اقناع الإنسان بالحق وهذا موقف كريم من مواقف القرآن المنهجية في التعامل مع الأديان سنقف عنده بعد قليل.

يبدو عند تأمل طبيعة هذا المنهج الجدلي القرآني بهذه الضوابط التي أشرنا إليها أنه هو المنهج الأم، وأن منهجي المقارنة والحوار من الممكن أن يكونا مما يطبق به المنهج الجدلي. لأنه إذا كان المطلوب من وراء المجادلة بالأحسن "إزالة الشبه وبيان الحق بإقامة الحجة فإن أي منهج يساعد على تحقيق هذا الهدف الأسمى يعتبر وسيلة من وسائل المجادلة بالأحسن.

منهج المقارنة:

والمنهج الثاني الذي نجده مذكورا في القرآن الكريم في هذا المجال منهج المقارنة. وهو في الحقيقة كما أشرنا سابقا وسيلة من وسائل المجادلة بالأحسن بالمفهوم القرآني.

والمقارنة كمنهج علمي في مجال الأديان وعلى المستوى الأكاديمي حديثة الظهور، ظهرت في القرن الماضي لدى علماء الغرب المهتمين بدراسة الأديان. لكن هذا لا ينفي كونها منهجا قرآنيا اتبعه علماء المسلمين وإن كان في نطاق محدود.

فالقرآن الكريم يوجه إلى هذا المنهج نظراً ويطبقه عملا. وهو أمر لا يخفى على من يتدبر القرآن الكريم. أما أن القرآن الكريم يوجه إليه نظرا فهو قوله تعالى: **{وإنا أو إياكم لعلي هدى أو في ضلال مبين}**.[٢٧] إن هذه الآية الكريمة صريحة في تقرير المقارنة كمنهج في البحث الدائر بين أهل الأديان والعقائد.

يقول محي الدين شيخ زادة في حاشيته على تفسير الإمام البيضاوي لهذه الآية الكريمة: "والمعنى وقل إن أحد الفريقين منا ومنكم لعلى أحد الأمرين من الهدى

---

٢٧ - سبأ: ٢٤.

والضلال المبين... فإنه تعالى أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أولا بأن يكافحهم ويوبخهم بقوله: **{قل أدعو الذين زعمتم من دون الله}** ثم بأن يسألهم سؤال تقرير عن تعيين رازقهم، ثم بأن يتولى الجواب بنفسه إيذانا بأنهم مع كونهم معتقدين للحق يمتنعون عن الإقرار به بالسنتهم عنادا أو خوفا من إلزام الحجة عليهم، وتنزل من هذه الدرجة ثانيا وأمره بأن يرخي العنان معهم ويقول لهم إنا أو إياكم الآية لينادي على تماديهم في الضلال على وجه هو أدخل في إثبات الغرض والغلبة على الخصم، وأوجب لسد طريق الشغب والجدال عليه".

"وقوله تعالى" أو إياكم" عطف على اسم إن، وما ذكر بعده خبر الأول، وحذف خبر الثاني للدلالة عليه أي "وإنا لعلي هدى أو في ضلال"، أو "إنكم لعلي هدى أو في ضلال"، ويحتمل أن يكون ما ذكره بعده خبر الثاني ويكون خبر الأول محذوفا كما في قوله نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض، والرأي مختلف حذف خبر الأول أي نحن راضون، وهذان الوجهان لا ينبغي أن يحملا على ظاهرهما قطعا، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يشك في أنه على هدى ويقين، وفي أن الكافرين على ضلال مبين، وإنما هذا الكلام جاء على ما يخاطب به العرب من استعمال الانصاف في محاوراتهم على سبيل الفرض والتقدير.[٢٨]

وماذا تعني المقارنة حتى في مفهومها الحديث أكثر من وضع دينين أو أكثر في كفتين متساويتين للنظر والبحث وإن كان الناس يختلفون بعد ذلك فيما يهدفون. والقرآن الكريم كما هو واضح من معنى الآية السابقة يطلب من المسلم في محاولته للإنتصار للحق أو دعوته لأصحابه الباطل أن يضع الحق الذي يؤمن به مع الباطل الذي يريد أن ينتشل اتباعه من قاعه في كفة متساوية ليكون ذلك ادعى إلى التوصل إلى الهدف المنشود. والتوصل إلى الحق هو هدف المقارنة وفق القرآن الكريم. وهذا لا يتنافي اطلاقا مع المفهوم اللغوي أو العقلي للمقارنة.

ولا شك أن المقارن يمكن أن يهدف من المقارنة معرفة أعمق بموضوع المقارنة

---

٢٨ - ص ٩٠ من الجزء الرابع، حاشية الشيخ زاده علي البيضاوي.

من باب " وبضدها تتمايز الأشياء"، فيركز على ما بين موضوعي المقارنة من اتفاق أو اختلاف، أو مشابهات ومغايرات، بدون أن يتجاوزها. وهذا في الواقع ما يسعى إليه الفكر الغربي الحديث في مجال مقارنة الأديان، وهو أمر لا بأس عليه إطلاقا. وإن كان العقل يسأل عن هدف هذه المعرفة العميقة، وهو سؤال له وجاهته العلمية، وقيمته العقلية. لكن المشكلة عندما يلح هذا الفكر الغربي على وجوب تجنب التوصل إلى نتيجة من مثل تفضيل دين على آخر كنتيجة من نتائج المقارنة ويصر عليه[٢٩]. وهذا في الحقيقة مشكلة فكرية لا نرى أن له مبررا عقلا أو مستندا علما.

ولا أدري ما هو المبرر العقلي أو المنطق العلمي أو المستند الواقعي لمطالبة المقارن بالتنكر لمبدأ التوصل إلى النتيجة العلمية من وراء المقارنة، والإنسان عندما يذهب إلى محل ليشتري سلعة ويستعرض أنواعا مختلفة منها يقلبها ويقارن بينها فهو أحد رجلين. أما إنه يوازن بينها ليختار أحسنها أو أرخصها أو أنسبها لنفسه أو إنه يريد فقط مجرد التعرف على الأنواع المختلفة. وفي الحالة الثانية فإن العقل يسأل عن الهدف من هذا التعرف ولابد أن يرجع الأمر في النهاية إلى الحالة الأولى. وقد يتسامح في مجرد التعرف وإن لم ينزل إلى النتيجة، لأن هذا شأنه، لكن لا يسمح به ولا يسمع له عندما ينكر على من ينزل إلى النتيجة وهو الأمر الطبيعي.

والأمر في الأديان لا يختلف عن هذا. فالمقارن بين دينين إما أن يقصد مجرد التعرف أو يتجاوزه إلى اختيار الأقوم والأرشد أو يزداد إيمانا بدينه وما إلى ذلك من الأهداف. فالفكر الغربي اختار الأول والقرآن الكريم قرر الثانية. وأرى أن القرآن الكريم في موقفه هذا ينسجم مع الفطرة الإنسانية، ويتفق مع طبيعة المسؤلية التي انيطت بالإنسان ويتوافق مع كرامته.

وعلى كل حال، إذا أراد الفكر الغربي أن يقف عندما أختاره فله ذلك، ولكن موقفه ليس حجة على اللغة أو العقل، فلا مجال لإنكار المقارنة كمنهج قرآني لأن مفهومه لا يتفق مع مفهوم الغرب. والحق أن الفكر الغربي هو المطالب بتبرير موقفه عقلا وتفسيره علما.

---

٢٩ - انظر مثلا: Huston Smith: Religions of Man (First Perennil Librery Edition 1965) P.6. and Ninian Smart" Seience of Riligion and Sicioligy of Knowledge' (Priceton Uneveristy press - 1977).

أما أن القرآن الكريم يطبق هذا المنهج عملا فهذا واضح من مئات الآيات الكريمات في القرآن التي تحاور أهل الأديان الأخرى وأصحاب المقالات الفاسدة. ويكفي على سبيل المثال أن تنظر في قوله تعالى: **{ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين}**.[٣٠]

فالقرآن الكريم إذن يقدم للمسلمين في تعاملهم مع الأديان منهج المقارنة. ولا شك أن المسلم يجد في هذا المنهج القرآني وسيلة فعالة لتقرير موقفه وتوضيح مبدئه، وتبليغ دعوته. إنه منهج يساعد على تهيئة الظروف الصالحة للمعرفة الصحيحة والتوصل إلى الحق. إن هذا المنهج القرآني لا يكفي فيه أن نقول عنه إنه منهج جيد، أو منهج من المناهج، إنما هو منهج يفوق في فاعليته وتأثيره وقدرته على تبيان الحق المناهج الأخرى التي يمكن أن تستخدم في المجال. فمن المستغرب إذن - والحالة هذه - أن نجد هناك بين المسلمين من يعترض على هذا المنهج، ويقف في سبيل استعماله بحجة أنه يضر الإسلام ضررا بالغا ويمس قداسته كدين إلهي منزل عندما يطالب بوضعه مع الأديان السماوية المحرفة أو الفلسفات الوضعية المنحرفة على قدم المساواة. إن هذه الحساسية التي قد يكون مصدرها النية الطيبة لا تقوم على فهم صحيح لموقف القرآن في هذا الخصوص ولا يستند إلى شيء من العقل السليم، وليس لها مكان في ظل قوله تعالى: "وإنا أو إياكم لعلي هدى أو في ضلال مبين".

منهج الحوار:

أما المنهج الثالث نراه منصوصا في القرآن الكريم في التعامل مع الأديان الأخرى وبخاصة اليهود والنصارى هو "الحوار". والحوار هنا ليس بالمعنى اللغوي الأصيل الذي يعني التردد في الكلام، إنما بمفهومه الحديث الذي يعني مناقشة علمية هادئة.

---

٣٠ - البقرة: ٢٥٨.

والحوار كمنهج علمي لم يعرفه العالم في مجال الأديان لأول مرة إلا من خلال القرآن الكريم، والأمم الأخرى قبل الإسلام لا نجد فيما لدينا من التراث الفكري والديني لها ما يشهد بوجود مثله لديها. وبلاد الغرب في العصور الوسطى وفي العصور الإسلامية الزاهرة وحتى هذا القرآن لم يعرف الحوار - في المجال الديني - ولم يؤمن به.

فالمسيحية التي كان يدين بها الغرب ما كانت تنظر إلى غيرها من الأديان إلا على أنها من أعمال الشياطين أو صنع الملائكة الذين اسقطوا من مرتبتهم العلوية[٣١]، وبالتالي لم يكن لديها أي استعداد للحوار مع الأديان الأخرى أو التعايش معها. إنما كانت محاولتها كلها في استعباد أهل الأديان الأخرى واستعمار بلادهم بشتى الطرق والوسائل. ومع أن الغرب يدعي وراثة اليونان في الفكر والحضارة فإنه لم يكن لديه ما كان لدى اليونانيين من تسامح فكري، أو تعاطف عقدي.

أما اليهودية التي عاشت وتعيش تحت سكر نظرية الشعب المختار لا يتوقع منها أن تنزع إلى الحوار مع الأديان الأخرى، لقد ظلت اليهودية ديانة مغلقة تعيش في أوهامها وأحلامها. ولهذا لم يسجل التاريخ لليهود ما يشبه الحوار أو ما يدل على نظرة متسامحة على الأقل.

وفيما يتعلق بأديان الهند فإن الهندوسية تؤمن مثل اليهودية بأن الإنسان يولد هندوسيا ولا يصير هندوسيا، ولهذا ظلت هي الأخرى سجينة أهواءها، وحبيسة نظرياتها المعقدة، إن دينا يفرق بين أتباعها على أساس الطبقة ويجعل من بعضهم "منبوذين" لا يجوز التعامل معهم، بل يعاقبهم أشد العقاب إذا رفعوا أصواتهم بحيث يقع في أسماع السادة[٣٢]، كيف يتصور منه الحوار مع الأديان الأخرى.

والبوذية تختلف كثيرا عن الهندوسية، لكنها ربما تكون أسوأ منها في نظرتها إلى الكون والحياة، أنها ديانة تنتقي من الكون مظاهر الآلام والمحن والتعاسة

---

٣١ - انظر ص ١٠ وما بعدها من: Eric J Sharpe: Compartive Religion: A History للوقوف على موقف المسيحية واليهودة أيضا من الأديان الأخرى.

٣٢ - انظر مثلا: "منوسمرتي" الباب الحادي عشر. (تعريب وتعليق الدكتور إحسان حقي (ط أولى ١٤٠٩ - ١٩٨٨ مؤسسة الرسالة).

وتجعلها فقط الحقيقة الكونية وبالتالي تعلم اتباعها الفرار من الكون والتخلص من الحياة. فكيف يتصور حوار هادف مع أهل الأديان أو الفلسفات الأخرى في ظلها.

وهكذا نجد أن الأديان العالمية الكبيرة السماوية منها والوضعية لا نجد فيها أو لديها إيمانا بالحوار، أو اتجاها إلى المناقشة العلمية.

فقط عندما انفتحت العالم على ساكنيه جميعا، وتواصلت الأمم والحضارات، وأصبح التعايش مع الآخرين حقيقة واقعية بل ضرورة معيشية بدأت هذه الأديان تغير من فلسفتها وتبدل من نظرتها فاتجهت أو بدأت تتجه إلى الحوار كل بطريقته ومفهومه ومنهجه.

أما الإسلام فهو الدين الوحيد الذي كان يؤمن بالحوار ويوجه أتباعه إليه في قوتهم وضعفهم، وانتصارهم وانكسارهم، والحوار الذي يبدو وسيلة مهمة من وسائل "المجادلة بالأحسن" تجد النص عليه صريحا في قوله تعالى: **{قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}**[٣٣]، إن هذه الآية الكريمة لا تدل فقط علي تبني القرآن الكريم "الحوار" كمنهج من مناهج الدعوة والتعامل مع الأديان الأخرى، إنما تدل أيضا على طبيعته التفاهمية للأديان وعلى مدى تسامحه واستعداده للتعايش معها بدون اعتداء أو استبعاد. وهذا ما يبشر به عقب هذه الآية الكريمة **{وإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}**.

ودعوة القرآن الكريم إلى الحوار ليس يراد منها تبادل المعرفة أو التعرف على ما عند الأخرين كما هو أحد أهداف الحوار المعلنة لدى علماء الغرب المعنيين به أو عند أصحاب الكنيسة[٣٤]. إنما يراد منها التوصل إلى الحق، أو مساعدة الآخرين على إدراكه بطريقة علمية هادفة.

ولا أظنني أتجاوز الحق إذا قلت إن معظم الآيات الكريمة التي جاءت لتناقش أهل الأديان الأخرى أو أصحاب المذاهب العقدية المختلفة يغلب عليها طابع

---

٣٣ ـ آل عمران: ٦٤.

٣٤ ـ انظر: Dialogue & Proclamation; Pontifical councel for Interreligious Dialogue, Vatican city - pente cost 1991) Also: Towards world Community" (ed' Stanely J Samartha, Geneva, wcc 1975).

الحوار بصورة واضحة. إن القارئ للقرآن الكريم يحس بمحاولة القرآن الكريم للأخذ بيد الآخرين إلى الحق برفق، أو تركهم وشأنهم إذا لم تنفع معهم المحاولات برفق أيضا إحساسا واضحا. وهذه الخصلة أجدر أن تكون من خصال الحوار ومظاهره في كل عصر.

انظر مثلا إلى قوله تعالى: **{قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين}**[٣٥]، ثم انظر قوله تعالى: **{أمن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ءاله مع الله بل هم يعدلون، أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ءاله مع الله بل أكثرهم لا يعقلون أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ءاله مع الله، قليلا ما تذكرون، أمن يهديكم في ظلمت البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ءاله مع الله تعالى الله عما يشركون، أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ءاله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقن}**.[٣٦]

إن القرآن الكريم يبدي استعداده ليتنزل إليهم ويناقش معهم في أي قضية مهما كانت خطيرة وحساسة بشرط أن يظل الحوار علميا ويلتزم الأطراف بتقديم البراهين العلمية على ما يدعون، انظر مثلا إلى القرآن وهو يحاور أولئك الذين ادعوا لله ولدا فلا يندفع أو ينفعل، إنما يقول لهم، في رفق وهدوء - أنتم لم تقدموا على هذا دليلا فهو قول بلا علم، وما كان هذا شأنه فهو عبث. **{قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني، له ما في السموات وما في الأرض. إن عندكم من سلطان بهذا، اتقولون على الله ما لا تعلمون، قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون}**.[٣٧]

هذا المنهج القرآني الذي أمر به الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وتأسى به علماء أمته قد كان يمارس في بلاد الإسلام بل في بلاط الخلفاء أنفسهم وهم في

٣٥ - القصص: ٥٠.

٣٦ - النمل: ٦٠ - ٦٥.

٣٧ - يونس: ٦٨ - ٦٩.

ذلك الوقت سادة الدنيا. يكفي فقط أن ننظر إلى تلك الحوارات التي كانت تحفل به مجالس المهدى أو المأمون مثلا من خلفاء العباسيين[٣٨]، أن مثل هذا التسامح الديني الذي لم تعرف له سابقة في التاريخ وما عرفنا له نظيرا حتى يومنا هذا هو الذي مكن رجلا مثل يوحنا المدمشقي[٣٩]، وهو يعمل في بلاط الأمويين أن يؤلف كتبا ليس فقط للرد على الإسلام والمسلمين إنما أيضا لتعليم الآخرين من أبناء دينه كيف يردون على المسلمين.

واليوم أصبح الحوار هو اللغة التي يرضاها الناس في الشرق والغرب، وقد تنبهت إلى أهميته في كسب النفوس الكنيسة المسيحية التي كان موقفها من الأديان الأخرى في يوم من الأيام ما قد أسلفنا. فبدأت تستخدم الحوار بكل قوة وبتنظيم عال كوسيلة من وسائل التبشير الفعال، فما أحرانا نحن المسلمين أن نستعمل هذا المنهج لخدمة الدعوة الإسلامية وصياغة علاقتنا مع الأديان الأخرى في ظل توجيهات القرآن الكريم، وتعليمات السنة النبوية الشريفة.

المنهج التاريخي:

وهناك منهج رابع أو قل وسيلة أخرى من وسائل "المجادلة بالأحسن" نجد القرآن الكريم يحث عليها ربما بطريقة غير مباشرة هو المنهج التاريخي. والمنهج التاريخي في اصطلاح علماء مقارنة الأديان اليوم يعني تتبع نشأة وتطور الأفكار والمذاهب الدينية من خلال المراحل التاريخية المختلفة، وتحديد الدور الذي لعبته العوامل المختلفة التي تعامل معها الدين أو الأديان في هذه المراحل.

هذا يعني أن المنهج التاريخي لا يحصر اهتمامه في منطق المعلومات التاريخية فقط وهذا ما يطلق عليه "Formal philosophy of History" إنما يتجاوز ذلك إلى الاهتمام بالقوى أو العوامل التي أثرت في الأديان من داخل

---

٣٨ ـ انظر مثلا History of Musllim philosophy, edited by M.M. Sharif, chapter 69 (karache 1983).

٣٩ ـ انظر فيه: Encyclopedia of Religion' Art" John of Dumacuss' وانظر أيضا: ص ١٣٥١ المجلد الثاني من: History of Muslim Philosophy, ed. by M.M. Shrif (Riyal book Company J Karache - 1983).

التاريخ نفسه وهو ما يعرف اليوم باسم: "Material Philosophy of History"، وعلى هذا فإن أعمال المؤرخين عادة تقوم على البحوث الأثرية واللغوية وعلى دراسة الوثائق المكتوبة والآثار الموجودة.(٤٠)

والمنهج التاريخي بهذا التحديد العلمي من المناهج الحديثة المشهورة في دراسة الأديان وبخاصة الأديان القديمة وبالأخص البدائية وإن لم نعدم محاولات إسلامية جديرة بالتقدير في هذا المجال قام بها علماء أعلام في عصور الإسلام الزاهرة.

والمتأمل للقرآن الكريم يجد أنه يوجه الأنظار بطرق مختلفة وإن كانت غير مباشرة إلى اصطناع المنهج التاريخي بطريقة لا تبتعد كثيرا عن هذا التحديد العلمي الحديث له. ففي قوله تعالى: {**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**}(٤١)، تحديد لعنصر جوهري من عناصر منهج الدعوة وهو "البصيرة". و"البصيرة" على ما ذكره الراغب الأصفهاني "المعرفة والتحقق"(٤٢)، وهي إذا فهمت على عمومها - وهو الأصل في فهم الألفاظ القرآنية - وكمالها لا تدل فقط على المعرفة والتحقق مما يدعو إليه، إنما تدل مع ذلك - وإن كانت الدلالة هنا غير مباشرة، على معرفة ما يتنافي مع ما يدعو إليه والتحقق منه أيضا.

ولعله مما يتفق مع هذا ما تدل عليه الآية التالية لها مباشرة: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحي إليهم من أهل القرى. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} وما قاله تعالى في آل عمران {**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**}.(٤٣)

وهل يكون السير في الأرض، والنظر فيما حدث للأمم الماضية شيئا سوى التتبع التاريخي بكل أبعاده؟ وربما تكون الآية الكريمة في سورة الإسراء: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"(٤٤)، ابلغ في الدلالة علي هذا.

---

٤٠ - انظر ص ت ٢١ ت ٢٣ من: Joachem Wach: "The comparative Stud of Religion" (edited with an Introduction by Joseph m. Kit aprwa) Colcmbia University Press 1958.

٤١ - يوسف: ١٠٨.

٤٢ - انظر: مادة "بصر" الراغب الأصفهاني" المفردات.

٤٣ - آل عمران: ١٣٨.

٤٤ - الأسراء: ٤٦.

وكما هو واضح من الآية الكريمة أن "السير في الأرض" كمصطلح قرآني يمكن أن يدخل فيه كل ما يندرج تحت المنهج التاريخي الحديث ـ مقصود به تنمية المعرفة وتطويرها. ولعل من إحدى وسائلها المذكورة في القرآن الكريم الاحتكاك بالثقافات المختلفة، وأجناس البشر المتنوعة كما يبدو ذلك من قوله تعالى: **{وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}**.(٤٥)

عندما يلقى المتدبر للقرآن الكريم نظرة موحدة إلى هذه الآيات الكريمات وينظر في نفس الوقت إلى الطريقة التي سلكها القرآن الكريم في الحديث عن الأديان المختلفة والملاحدة يجد أن القرن الكريم يوجه إلي اصطناع المنهج التاريخي بكل ما له من معان وأبعاد، بل يحث على ذلك حثا من الناحيتين النظرية والعملية.

فاتضح لنا من كل ما سبق، أن الاتجاه العام الذي يتبناه القرآن الكريم تجاه الأديان اتجاه علمي نقدي. وإن هذا الاتجاه طبق من خلال منهج المجادلة بالأحسن "التي تعني المناقشة الموضوعية الهادفة بغية التوصل إلى الحق أو توضيحه أو الدلالة عليه. وإن هذه المجادلة يمكن أن تتخذ وسائل مختلفة، وهي في حد ذاتها مناهج مثل المقارنة والحوار والمنهج التاريخي وإن كان معين القرآن الكريم لا ينضب بشأن هذه الوسائل والمناهج.

علماء المسلمين وقضية المنهج:

إن علماء المسلمين على طول تاريخهم عنوا عناية كبيرة بقضية المنهج وكانت في مقدمة القضايا التي اهتم بها هؤلاء العلماء كل في مجال نشاطه. وما اشتغل المسلمون في جانب من جوانب العلم، أو مجال من مجالات الفكر إلا وقدموا له منهجا علميا مناسبا يوجه الباحث فيه، ويضمن له سلامة السير واستقامة المعالجة، حتى صارت هذه المناهج لخطورة شأنها، وعظم اهتمام العلماء بها علوما مستقلة. فعلوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلم أصول الفقه على سبيل المثال ـ إن هي إلا مناهج علمية أبدعها علماء المسلمين لتحقيق الموضوعية في نشاطهم العلمي، ولإنصاف البحث، ولتجنب الزلل والانحراف.

---

٤٥ ـ الحجرات: ١٣.

إن القاعدة المنهجية التي اشتهرت عند علماء المسلمين "إن كنت ناقلا فالصحة، أو مدعيا فالدليل" تمثل مفتاح الشخصية المنهجية لدى علماء الإسلام.

ويشهد التاريخ الحضاري لعلماء المسلمين هذا الاهتمام بالمنهج ليس فقط في مجال العلوم النظرية أو التربوية أو الدينية، إنما أيضا في مجالات العلوم الطبيعية والكونية. فجهود العلماء من أمثال: "الخورزمي" والحسن بن الهيثم" و"الرازي" و"جابر بن حيان"، "وابن سينا" و"الفارابي" و"ابن خلدون" و"الغزالي" و"البيروني" - ومن لم نذكرهم كثير - في مجال المنهج من المعالم البارزة في تاريخ الحضارة الإنسانية[٤٦]، وحتى مجال تصنيف العلوم وطرق التعلم قدم فيه المسلمون جهودا علمية ملموسة لا ينكرها إلا من يجهل تاريخ الحضارة الإنسانية عموما والإسلامية منها على وجه الخصوص.

وإذا عدنا الآن إلى علماء المسلمين ناظرين في تراثهم العلمي المتخصص في حقل مقارنة الأديان، ومتأملين في مناهجهم وأساليب دراستهم نجد:

أولا: أنهم جميعا بلا استثناء تبنوا الاتجاه القرآني النقدي تجاه الأديان المختلفة التي واجهوها، أو تعاملوا معها وكتبوا عنها.

حتى أولئك الذين يظن بهم أنهم أبعد عن النقد كانوا واضعين نصب أعينهم هذا الاتجاه وشاعرين به. يمكن أن تأخذ البيروني كمثال لهذا. فكتابه "تحقيق ما للهند" لا تجد فيه إلا تاريخا دقيقا لأديان الهند وعلومها وفلسفتها بمنهجية علمية غير مسبوقة، ولم يشغل البيروني نفسه كثيرا بالنقد وإن شغلها بالمقارنة العلمية الكثيره الممتازة ومع ذلك فإن الهدف النقدي ماثل أمام عينيه. انظر اليه إذ يقول وهو بصدد التعريف بمنهجه ودواعي تأليف هذا الكتاب: "إنه حرره كما عرفه من جهتهم ليكون نصرة لمن أراد مناقضتهم، وذخيرة لمن رام مخالطتهم".[٤٧]

ثانيا: إنهم جميعا تبنوا منهج "المجادلة بالحسنى". بمعناها القرآني وبوسائلها القرآنية من مقارنة وتاريخ وحوار كل وفق ظروف عصره وواقع محيطه وبطريقته

٤٦ - انظر في قضية المنهج عند علماء الإسلام:

د. جلال محمد موسى: "منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية" (دار الكتاب اللبناني - بيروت. ط أولى ١٩٧٢).

د. محمد سعيد رمضان البوطي: "كبرى اليقينيات الكونية" (دار الفكر - دمشق ت ١٩٨٩) ص ٣١ - ٦٣.

٤٧ - ص ٥ تحقيق ما للهند (دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد. الهند - ١٣٧٧ - ١٩٥٨) بتصرف.

الخاصة مع إضافات منهجية لبعضهم هي في الحقيقة إبداعات علمية غير مسبوقة في حقل مقارنة الأديان كما سنرى.

ونحن بطبيعة الحال لا نستطيع أن نتعرض لجميع أو معظم من عرفناهم من العلماء الذين تركوا آثارا علمية متخصصة في هذا المجال. وهم جميعا أئمة فضلاء، وعلماء أعلام خدموا الدين والعلم في مجالهم هذا خدمات عظيمة، إنما نحصر أنفسنا في نطاق بعضهم ممن أبدع إبداعا من الناحية المنهجية.

وعلى هذا الأساس اخترنا ثلاث شخصيات عظيمة من تاريخ الفكر الإسلامي، كلها في الحقيقة عمدة من أعمدة هذا الفكر، وحجة من حججه، ومعلم عظيم من معالمه. وكل واحدة منها لها تميز في الجانب المنهجي في حقل مقارنة الأديان. وهم جميعا يمثلون حقبة عزيزة من حقب الحضارة الإسلامية الزاهرة. وهذه الشخصيات الثلاثة حسب الترتيب التاريخي:

أ ـ أبو الحسن العامري المتوفي ٣٨١هـ.

ب ـ أبو الريحان البيروني المتوفي ٤٤٠هـ.

جـ ـ ابن حزم الأندلسي المتوفي ٤٥٦هـ.

أبو الحسن العامري "ومنهج المقارنة":

إن أبا الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري الذي برز في القرن الرابع الهجري أو العاشر الميلادي يأتي في "مقدمة علماء مقارنة الأديان من المسلمين ـ وفي طليعتهم عندما ننظر إليهم من الناحية المنهجية. لقد استفاضت المصادر التاريخية[٤٨]، بذكر أخباره وترجمته، فلا نريد التعرض لها هنا إلا بمقدر ما يلقى الضوء على ما نحن بصدده من حديث عن منهج العامري في دراسة الأديان.

لقد كان العامري من كبار علماء الإسلام وفلاسفتهم، وأبرز من جمع بين العلم

---

٤٨ ـ انظر مقدمة الأستاذ الدكتور أحمد عبد الحميد الغراب لتحقيقه لكتاب "الإعلام بمناقب الإسلام" للعامري (ط أولى ١٤٩٨ ـ ١٩٨٨ دار الإصالة للثقافة والنشر والإعلام ـ الرياض)، والمقدمة الممتازة التي كتبها E.K. Rowson لتحقيقه لكتاب "الأمد على الأبد" دار الكندي ـ بيروت والمقدمة باللغة الإنجليزية، ففي هاتين الدارستين إحالة إلى المصادر الأساسية لحياة العامري.

والقدرة على بيانه وتوصيله إلى الناس، وهو عالم موسوعي توجه بإهتماماته إلى كثير من مجالات العلم والفكر. ويكفي أن نلقي نظرة سريعة إلى عناوين كتبه لندرك كم كان مهتما بقضايا العلم المختلفة، وجوانب المعرفة المتنوعة، ومجالات الفكر المتعددة. فقد ذكر هو نفسه في بداية كتابه "الأمد على الأبد" الذي ألفه قبل ست سنوات من وفاته أسماء الكتب التي قام بتأليفها فذكر منها:

- الإبانة عن علل الديانة.
- الإعلام بمناقب الإسلام.
- الإرشاد لتصحيح الاعتقاد.
- النسك العقلي والتصوف الملي.
- الاتمام لفضائل الأنام.
- التقرير لأوجه التقدير.
- انقاذ البشر من الجبر والقدر.
- الفصول البرهانية للمباحث النفسانية.
- فصول التأدب وأصول التحبب.
- الإبشار والأشجار.
- الإفصاح والإيضاح.
- العناية والدراية.
- الأبحاث عن الأحداث.
- استفتاح النظر.
- الأبصار والمبصر.
- تحصيل السلامة عن الحصر والأسر.
- التبصير لأوجه التعبير.

بالإضافة إلى "رسائل وجيزة، وأجوبة المسائل الدينية المتفرقة، وشرح الأصول المنطقية، وتفاسير المصنفات الطبيعية، ورسائل إلى الأمراء والرؤساء باللغة الفارسية".(٤٩)

---

٤٩ - انظر ص ٥٥ - ٥٧ الأمد على الأبد.

ويشير في الفصل التاسع عشر من كتاب "الأمد" إلى كتاب "الإرشاد لتصحيح الاعتقاد" وإنه يتعرض لدراسة مقارنة لعقيدة البعث والمعاد عند المجوس والثنوية واليهود والنصارى.(٥٠)

ويضيف الدكتور أحمد غراب كتابا آخر لم يذكره العامري ضمن ما ذكره وهو كتاب "الفصول في العلم الإلهية" ويتناول موضوع العقيدة الإسلامية.(٥١)

ومع أن معظم هذه المؤلفات لم يصل إلينا وبعضها لا يزال مخطوطا إلا أن ما وصلنا مطبوعا من كتبه الخاصة بمقارنة الأديان وهي مدى علمي - كتابا "الإعلام" و"الأمد" - يكفي لابراز دوره الريادي في هذا المجال.

والعامري - هذا العالم الموسوعي الذي نعجب لإهمال الباحثين لتراثه وجهل الكثيرين به وبصاحبه - متخرج من مدرسة الكندي الفلسفية، فهو تلميذ أبو زيد البلخي الذي كان من أشهر تلاميذ الكندي الملقب بفيلسوف العرب. ولعل من مزايا هذه المدرسة التي نجدها واضحة عند العامري المحافظة على التوازن الفكري، والانصاف إلى حد كبير، بالإضافة إلى أنها اهتمت بموضوع الأديان اهتماما كُبيرا.

فالكندي رائد هذه المدرسة الفلسفية المتميزة التي يقول فيها الدكتور "أحمد غراب" بحق "إنهم جميعا جمعوا إلى جانب الثقافة العربية الإسلامية ثقافات أخرى عديدة، ولا سيما الثقافة اليونانية وثقافات الأمم ذات الحضارات القديمة، وقوموا هذه الثقافات من وجهة نظر إسلامية، فاستفادوا بما فيها من علوم وحكمة، وفندوا ما بها من أخطاء وجهالات"(٥٢) - نرى له بجانب اهتماماته الفلسفية وغيرها اهتماما بالأديان، فيذكر له ابن النديم في فهرسته رسائل في نقض مسائل الملحدين، والرد على المانونية والثنوية والنصارى، وفي افتراق الملل في التوحيد وإنهم مجمعون على التوحيد"(٥٣)، وأبو زيد البلخي تنسب إليه المصادر كتابا بعنوان "شرائع

---

٥٠ - ص ١٥٢ الأمد.

٥١ - ١٤ من "الإعلام بمناقب الإسلام" مقدمة المحقق.

٥٢ - ص ٨ الإعلام مقدمة المحقق.

٥٣ - الفهرست لابن النديم ص ٣١٥ (طبعة ايران ١٣٩١ / ١٩٧١).

الأديان"(٥٤)، فلا عجب أن يأتي ثالثهم أبو الحسن العامري يسلك نهج أساتذته حتى يبرزهم في هذا الميدان.

فالثقافة الدينية العميقة، والخبرة الفلسفية المتعمقة، والتجارب التي اكتسبها من خلال أسفاره وجولاته، واقامته في العواصم الثقافية الكبيرة في العالم الإسلامي وبخاصة بغداد والري وبخارى تلك الرحلات العلمية التي جعلت بعض معاصريه يصفه بأنه "كان من الجوالين الذين نقبوا في البلاد، واطلعوا على أسرار الله في العباد"(٥٥) كل هذه اكسبت العامري مقدرة عقلية عظيمة، وبصيرة علمية نافذة ليدخل في مجالات العلم المختلفة ومجال مقارنة الأديان منها على وجه الخصوص من أوسع أبوابها، ويخلد اسمه فيها.

ونحن في الحقيقة ندين بالفضل للأستاذ الدكتور أحمد عبد الحميد غراب الذي وجه اهتمام الباحثين والعلماء في العصر الحديث لأول مرة إلى العامري من خلال تحقيقه لكتاب "الإعلام في مناقب الإسلام "وتبعه الأستاذ E.K. Rowson بنشر كتاب العامري الآخر: "الأمد على الأبد". وأغلب ظني أنه لولا جهود هذين الباحثين لما استطعنا اليوم الحديث عن العامري وندرس جهوده في مجال مقارنة الأديان.

ومن المؤكد أن في تراث العامري مجالا خصبا لمن يريد خدمة العلم والفكر والحضارة.

وإذا جئنا إلى العامري في مجال الأديان ونظرنا فيما لدينا من تراثه فيه ندرك بوضوح أنه ينظر إلى الأديان نظرة نقدية علمية. وأنه ينطلق من الحقيقة القرآنية **{إن الدين عند الله الإسلام}** ولعل الاسم الذي اختاره لأبرز كتابه في المجال وهو "الإعلام بمناقب الإسلام" يفصح عن هذه النظرة لديه ابلغ إفصاح.

لكن هذه النظرية النقدية علمية بكل مالها من معنى، فهو لا يستغل النقد للإنقضاض على الأديان الأخرى بلا موضوعية أو إنصاف. إنما يطبقه من خلال "المقارنة الموضوعية"، والنظرة النقدية هنا لا تعبر عن شيء سوى الإنصاف العلمي.

٥٤ ـ ص ١ الأمد على الأبد (مقدمة المحقق).

٥٥ ـ أبو حيان التوحيدي "الاتباع والمؤانسة" نقلا عن الإعلام في مناقب الإسلام" (مقدمة المحقق. وانظر: المرجع السابق.

وإذا أردنا أن نتحدث عن الناحية المنهجية عند العامري بشيء من التفصيل فنستطيع أن نقول أنه ربما كان أول من استخدم المقارنة بالمعنى العلمي الدقيق في مجال الأديان وإن كان يسميها "مقابلة"(٥٦). وهذ منقبة منهجية عظيمة لا يمكن أن يختلف فيه اثنان. ولا ندري ـ فيما لدينا من تاريخ علمي للحضارات السابقة على الإسلام ـ ما يدل على وجود مثل هذه المقارنة المنهجية للأديان. والفكر الغربي لم يعرف "المقارنة" كمنهج في مجال الأديان إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فمن هنا يبرز العامري ـ ونحن نتحدث في حدود ما لدينا من تراث علمي ـ أول معرف بمنهج المقارنة وأول مطبق له بطريقة علمية. فلا عجب إذن إن نجد E.K. Rowson محقق كتاب "الأمد على الأبد" للعامري يصف كتاب "الإعلام بمناقب الإسلام" وهو الكتاب الذي بين فيه العامري منهجه في المقابلة بين الأديان ـ بقوله: "أنه مقارنة منظمة للإسلام مع اليهودية والصابئية، والمسيحية، والزرادشتية ومذاهب الشرك".(٥٧)

ولا يريد العامري أن تكون المقارنة بين الأديان بلا هدف، أو لمجرد اشباع الهوى العلمي، انما يريدها للتوصل إلى الحق، وتحقيقه واعتناقه بعد ذلك بالحجة والبرهان. يقول العامري ـ وأريد أن أنقل النص على طوله بعض الشيء لفائدته القصوى ـ "أن الحق متاح لمن أراده وأحب أن ينطق به، لكن للنفوس أو طار تؤثر على طلب الأجر، ولا بد للفهم من قادح، وللمنطق من واع، وإن لم تلقح العقول بالتذكرة لم يحسن الصواب منها، وعلى السبيل إلى الله أعلام ظاهرة، وشواهد واضحة، ولن يذهب عن الحق من سعي بصدق نية في طلبه، وإذ عرف هذا، وقد كان سبق القول منا بأن مدار الدين يكون متعلقا بالاعتقادات والعبادات والمعاملات والمزاجر، فغير بعيد أن يعلم العاقل بأدنى الرويّة أنه ليس ولا واحد من الأديان الستة التي لها خطط وممالك وهي المذكورة بقوله تعالى **{إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة}**(٥٨) إلا وله اعتقاد بشئ يجري سعيه إليه، ومنهج في العبودية يتحرى

---

٥٦ ـ ص ١٢٥ الإعلام.

٥٧ ـ ص ١٧ الأمد على الأبد (مقدمة المحقق).

٥٨ ـ الحج: ١٧.

بالتزامة إقامة الطاعة، وأوضاع في المعاملات ينتظم بها معاشهم، ورسوم في المزاجر يتحصن بها عن البوائق والأشرار. وأن الواجب عليه أن يتحقق رجحان ما يؤثره من الأبواب الأربعة على ما يزنه منها، لا بحسب الاقتداء بالسلف، بل بمقتضى العقل الصريح، وأن يتأمل فيه معنى قول الله تعالى: **{وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون، فانتقمنا منهم، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين}**[٥٩]. وإذ كان هذا أمرا يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فمن الواجب أن نصف الأركان التي عليها مدار كل واحد من هذه الأقسام الأربعة: أعني الأركان الاعتقادية، والأركان العبادية، والأركان المعاملية، والأركان المزاجرية ليتمكن به المتين من مقابله كل ركن مما يدين به بنظيره الذي أطرحه من الأديان".[٦٠]

فكما هو واضح من النص، إن كل مؤمن أيا كان دينه، مطالب في منطق العلم والعقل أن يبرر موقفه ويؤيد بالحجة والبرهان اختياره وانتماءه، وإن هذا يجب أن يكون من خلال مقارنة شاملة لما عليه هو ولما عليه الأخرون، ويكون الهدف في النهاية هو اتباع الحق الذي ليس وراءه غاية اسمى منها.

وموضوعية هذه النظرة العامرية - المنبثقة عن الوحي القرآني - وقوتها العلمية لا يمكن أن تكون مدار الاختلافات. وقد لا تعجب هذه النظرة الفكر الغربي الحديث أو علماء مقارنة الأديان المحدثين الذين لا يحبذون تفضيل دين على آخر ولو قام ألف دليل على ذلك، بل يفرون من مثل هذا فرارا ، وهذا شأنهم، وعليهم أن يبرروا موقفهم هذا بالمنطق العلمي. لكن المقارنة الموضوعية - كما أشرنا فيما سبق - لا تتنافى وينبغي ألا تتنافى مع تفضيل دين على آخر ما دام ذلك قائما على الحجة والبرهان، وما يذهب إليه الفكر الغربي من وجوب عدم توجه المقارنة إلى التفضيل أو الحكم ليس حجة على العلم أو العقل أو اللغة كما أسلفنا.

وانطلاقا من هذه النظرة العلمية للمقارنة يذهب العامري ليوضح الشروط أو

---

٥٩ - الزخرف: ٢٣ - ٢٤، ٢٥.

٦٠ - ص ١٢١ - ١٢٢ الإعلام.

الضوابط الواجب مراعاتها عند المقارنة ضمانا للصواب، وتحقيقا للموضوعية العلمية الكاملة، فيتوج بها نظريته في المقارنة، ويخلد - نتيجة لها - اسمه في تاريخ الفكر الإنساني كرائد منهج المقارنة في مجال الأديان.

يقول العامري: "إن تبيان فضيلة الشيء على الشيء بحسب المقابلات بينها قد يكون صوابا وقد يكون خطأ، وصورة الصواب معلقة بشيئين: أحدهما: الا يوقع المقايسة إلا بين الأشكال المتجانسة، أعنى ألا يعمد إلى أشرف ما في هذا فيقيسه بأرذل ما في صاحبه، ويعمد إلى أصل من أصول هذا فيقابله بفرع من فروع ذلك. والآخر: ألا يعمد إلى خلة موصوفة في فرقة من الفرق غير مستفيضة في كافتها فينسبها إلى جملة طبقاتها، ومتى حافظ العقل في المقابلة بين الأشياء على هذين المعنيين فقد سهل عليه المأخذ في توفية حظوظ المتقابلات، وكان ملازما للصواب في أمره".(٦١)

والنص لا يحتاج إلى تعليق أو توضيح، ولا أظنّي مبالغا إذا قلت إن العالم لم يعرف - في مجال دراسة الأديان - المقارنة بمثل هذه الضوابط قبل العامري. بل وحتى في العصر الحديث الذي نجد فيه الاتجاه العلمي بارزا إلا أن المقارنة كمنهج لا تزال تشوبها شوائب لم يتخلص الفكر الحديث منها تماما. وما أكثر الكتابات التي تظهر في الشرق والغرب - وفي الغرب أكثر - تحت عنوان "المقارنة بين الأديان؛ وما أبعد أكثرها عن مثل هذه الموضوعية والدقة العلمية؟

إن الفكر الغربي الذي يتحدث كثيرا عن المنهج العلمي والمقارنة المحايدة أبعد كثيرا - في عديد من كتابات علمائه - عن مثل هذه الضوابط العلمية، وبخاصة عند ما يكون الإسلام داخلا في المقارنة. يمكنك أن تنظر إلى كتاب: "A Hand Book of Comparative Religion لمؤلفه:Kellog (٦٢) وهو كتاب استخدم في مناهج بعض الجامعات الإسلامية حتى وقت قريب لتدرك كيف تطبق المقارنة؟ وكيف يحيد أهلها عن المنطق العلمي؟ وكيف يصورون الأديان على هواهم لا كما يعتنقها

---

٦١ - ص ١٢٥ الإعلام.

٦٢ - انظر مثلا: A Hand book of Comparative Riligion: by kellog (Westminster Press - Philedelphia 0 1935).

أهلها. وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد فضل الرحمن الأنصاري في كتابه القيم "الإسلام والمسيحية في العالم الحديث": إن الدكتور "وليم رالف انجه" William Ralf Inge - أحد اللاهوتيين المسيحيين اللامعين ومؤلف كتب كثيرة تعتبر مراجع مهمة للباحثين في المسيحية خصوصا وفي باب مقارنة الأديان عموما عبر مرة عن آرائه حول بعض قضايا الإسلام، عندما سئل عن مصادر ملعوماته عن الإسلام فإنه لم يشر إلى القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، إنما أشار إلى " ألف ليلة وليلة" وبطبيعة الحال - والكلام للدكتور الأنصاري في أسلوب ساخر - لا أحد يستطيع تحدى مصدر هذا الكاتب العليم".[٦٣]

وإذا كان الفكر الغربي قد انحرف - في كثير أو قليل - عن الموضوعية والنهج العلمي - فإن بعض المسلمين أيضا يخطئون كثيرا عندما يقارنون في دراساتهم بين الإسلام في تعاليمه وبين الغرب في واقعه. وهذه في الحقيقة مقارنة غير عادلة. إنما الأمر ينبغي أن يكون - كما يقول العامري - بين الأصل والأصل، والفرع والفرع، بين النظرية والنظرية، لا بين النظرية هنا والواقع هناك.

هكذا نرى أن العامري بمفهومه للمقارنة وتبنيه لها والضوابط التي وضعها لتطبيقها، وتمسكه بها في أعماله يحتل مكانة رائدة لا تضارع في مجال علم مقارنة الأديان من الناحية المنهجية. بل أن العامري قد يكن أول من اتجه إلى تطبيق منهج المقارنة ليس فقط على العقائد الأساسية للأديان المختلفة إنما على فروعها وشرائعها ونظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كما يشهد بذلك كتابه العظيم" "الإعلام بمناقب الإسلام".[٦٤]

وقد لا نرى في ما لدينا من أعمال العامري اهتماما بالتأريخ ولكن هذا لا يلزم المقارن في حال من الأحوال. وربما نرى في أعمال العامري ميلا شديدا إلى الإيجاز، لكن هذا لا يقلل في أي حال من الأحوال من قيمتها وموضوعيتها. على أن

---

٦٣ - ص ٣ من: Islam and christianity in the Modern world by. Dr. M. F. Ansari: "The World Federation of Islamic Missions - Karachi - Pakistan - 2nd edition - 1976).

٦٤ - انظر الدراسة القيمة التي قدم بها الأستاذ الدكتور أحمد عبد الحميد غراب هذا الكتاب. وكذلك مقدمة محقق كتاب "الأمد على الأبد".

الإيجاز خاصية بارزة من خصائص أعمال العامري العلمية كما أنها خاصية من خصائص كتابات العلماء الأعلام في العصور الإسلامية الزاهرة.

البيروني والمنهج التاريخي والانتروبولوجي والمقارنة:

ومع أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني نأتي إلى علم آخر من أعلام الحضارة الإسلامية في مجال مقارنة الأديان.

والبيروني الذي عاش فيما بين النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري أو ٩٧٣ ـ ١٠٤٨م، من أبرز الوجوه العلمية التي ولدتها الحضارة الإسلامية. بل الحضارة الإنسانية.

وإذا كان الدكتور سيد حسين نصر ينقل عن البعض قولهم بأن البيروي أعظم العلماء (بالمعنى التجريبي) من المسلمين، ويرى أنه أحد أبرز الوجوه العلمية في الإسلام[٦٥]، فإن المستشرق " سخاو" الذي ترجم كتاب البيروني "تحقيق ما للهند، إلى الألمانية ثم إلى الإنجليزية يقول: "إن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ"[٦٦]، وقال عنه الدكتور سارطون. مؤلف الكتاب المشهور "تاريخ العلم" "كان البيروني باحثا فيلسوفا رياضيا جغرافيا من أصحاب الثقافة الواسعة، بل من أعظم علماء الإسلام، ومن أكابر علماء العالم"[٦٧]، فلا غرابة في أن نجد الأمم تتنافس على نسبته إليها، فالإتراك والإيرانيون والروس والأفغان كلهم يتنافسون عليه، فقد كان كما قال يوسف شخت": "عبقريا مبدعا ذا بصيرة شاملة".[٦٨]

لقد ألف البيروني كتيبا كثيرة يبدو أن كثيرا منها لم يصل إلينا، ويذكر "سيد حسين نصر" إنه يعرف للبيروني اليوم مائة وثمانون كتابا[٦٩]، وطبقا للدكتور "فتح

---

٦٥ ـ انظر: ص ٥٠ من: Science and Civilization in Islam by "Sayyed Hussain Nasr (Suhail Academy - Lahore - Second ed. 1987).

٦٦ ـ Athar al Baqiya of Biruni (Sachaus English t) London - 1879).

٦٧ ـ نقلا عن "أبو الفتوح محمد التوانس عن كتابه "البيروني" ص ١٤٨ (الكتاب السادس والثلاثون من اصدارات الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٣٨٦ ـ ١٩٦٧).

٦٨ ـ انظر نفس المرجع ص ١٤٩.

٦٩ ـ ص ٥٠ سيد حسين نصر، نفس المرجع السابق.

الله مجتبى" أن البيروني نفسه قد أعد في عام ٤٢٨هـ قائمة بأبحاثه تحتوي على أكثر من مائة كتاب سبعة وعشرون منها في "الهنديات".(٧٠)

وبطبيعة الحال، فإننا لا نريد الحديث عن جوانب ثقافة البيروني المتعددة، ولا عن أبعاد شخصيته العلمية العميقة المتنوعة، فهناك كتابات إسلامية واستشراقية عديدة يمكن الرجوع إليها(٧١) وإن كنا نرى أن الكتابات الإسلامية لم تعط للبيروني ما يستحقه من الاهتمام، إنما نريد فقط أن نحصر أنفسنا في جانب واحد من جوانب تراث هذا العالم المبدع الكبير ألا وهو جانب مقارنة الأديان وبخاصة الناحية المنهجية منه.

لقد دخل البيروني مجال مقارنة الأديان واشتغل فيه ربما بدون أن يشعر بذلك أو يقصد ذلك. لقد وجد نفسه مسوقا إلى هذا الميدان سوقا أثناء نشاطه وتجواله كعالم ومؤرخ يبحث في ثقافات الأمم وحضارات الشعوب وعلوم البلاد والعباد. فكانت النتيجة هذه الكتابات التي تعتبر رائدة بكل المقاييس العلمية، وتلك المناهج التي سبق بها العصور في مجال مقارنة الأديان.

ومن قائمة مؤلفات البيروني نجد أن له ستة كتب - بعضها مترجم وبعضها مؤلف - تدخل في صميم مقارنة الأديان. وهي:

- حديث صنمي "باميان" (عبارة عن قصة صنمين بوذيين في باميان بأفغانستان).
- مقالات في باسديوا الهند (ويرى الدكتور فتح الله مجتبى إن هذا يمكن أن يكن ترجمة لكتاب "كيرشنا أوتار" (الظهور الإلهي لكرشنا).(٧٢)
- كتاب "باتنجل" أو ترجمة كتاب "باتنجل" في الخلاص من الارتباك. وهو كتاب يتحدث عن اليوجا: أسسه وقواعده ومناهجه. ويشير البيروني إلى موضوعات هذا الكتاب في كتابه الكبير تحقيق ما للهند وينقل عنه كثيرا.

---

٧٠ - انظر: ص ١٤ ١٨ من: F. Mujthbai: Hindu Muslim Cultural Relations” (India 1978).

٧١ - انظر مثلا: AL BIRUNI, Commemarative Volume (edited by Hakim Mohammad Said Pkistan).

٧٢ - ص ١٧ Hindu Muslim Cultural Relations

- ترجمة كتاب السانك في الموجودات المحسوسة والمعقولة"، وهذا هو المشهور بكتاب " سنكايا"، ويتحدث بدقة عن الفلسفة الهندية في الوجود.

- تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة.

- الآثار الباقية عن القرون الخالية.

ودراسة الجانب المنهجي لدى البيروني لا تحتاج إلى شيء آخر غير كتابه "تحقيق ما للهند" الذي اعتبره "لأبوليه" بحق "من الدراسات الباكرة في مقارنة الأديان على الرغم من إيجازه واقتصاره على ديانات الهند"(٧٣) والبيروني نفسه صرح في آخر مقدمة تحقيقه بأن التحقيق يغني عن كل ما كتبه من قبل في الموضوع.(٧٤)

ومعلوم أن البيروني لم يقدم لنا دراسة مفصلة عن جميع أو معظم الأديان العالمية، إنما تحدث فقط عن الهندوسية وأديان الهند الأخرى وإن كان كتابه "الآثار الباقية" لا يخلو من معلومات دقيقة مفيدة عن بعض الأديان العالمية مثل اليهودية والمسيحية وغيرهما، لكن هذا الذي قدمه فيما يتعلق بأديان الهند يعتبر عملا علميا رائعا بكل المقاييس، ولا يهمنا طبعا - ونحن نعالج الجانب المنهجي - عدد الأديان التي يتكلم البيروني عنها، أو كمية المعلومات عن كل واحد منها بقدرما يهمنا تلك الكيفية التي يتبعها فيما يعطي من معلومات، وذلك المنهج الذي يسلكه فيما يذكره من أخبار وتواريخ.

فإذا جئنا إلى هذا الجانب المنهجي لنرى جهوده فيه نجد أنه أبدع فيه إبداعا لم يسبق إليه. ونستطيع أن نقول متعجلين النتيجة إنه استخدم المنهج التاريخي بالمعنى العلمي الدقيق وكأنه من رجالات هذا القرن العشرين، ووظف المنهج الانتروبولوجي لخدمة منهجه التاريخي وكأنه من علماء مقارنة الأديان في العصر الحديث، بل إننا نرى منهج المقارنة التي تهدف إلى إبراز أوجه التشابة لأجل التوصل إلى مزيد من الوضوع والفهم على أدق ما يكون وكأنه من مدرسة عالم

---

٧٣ - نقلا عن الأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمي "المقدمة الدراسية للرد الجميل للإمام الغزالي ص ٧٧ (نشرة الأزهر ١٣٩٣ - ١٩٧٣).

٧٤ - ص ٦ تحقيق ما للهند (دائرة المعارف العثمانية ت حيدر آباد الدكن بالهند) ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م.

مقارنة الأديان الكبير "يوخيم واخ" الألماني. بل إننا نرى الدكتور فتح الله مجتبى يعتبر البيروني رائد المنهج الظاهراتي قبل أن يعرف العالم هذا المنهج في مجال الأديان.(٧٥)

ولعل مما يكمن أن يعتبر مفتاحا لشخصية البيروني العلمية المنهجية ما يقوله في الآثار الباقية: "أما فيما يتعلق بأسماء الشهور عند الهنود والصينيين، وأهل الثبت والتركستان وألئك الأثيوبيين والإفريقيين فإني سأتوقف عن سردها على الرغم من علمي ببعضها حتى تصبح كلها معلومة لي، فإن المنهج الذي كنت اتبعه لا يسمح لي بخلط الشك باليقين، والمجهول بالعلوم".(٧٦)

إن هذا النص يلخص لنا بالتأكيد العقلية المنهجية للبيروني خير تلخيص، فهو رجل لا يريد أن يطلق القول إطلاقا بدون أن يتيقن من مصادره، ومن صدقه، وبدون أن يكون على علم شامل بموضوع حديثه، فرجل يبدأ هذه البداية يمكن أن ينتظر منه الكثير، وبالفعل قدم البيروني هذا الكثير فيما يتعلق بالمنهج.

إنه لم يكتب كتابه عن الهند وفلسفاتها وأديانها وعلومها إلا بعد أن بذل جهده في معرفة هذا البلد وأديانه وفلسفته وعلومه ووصل إلى ما يحسد عليه. انظر إليه وهو يقول:

"إني كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم، فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل، وأشير إلى شيء من البراهين، والوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات فانثالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين يسألون عمن شاهدته من الهند حتى أخذت عنه، وأنا أريهم مقدارهم واترفع عن جنبهم مستنكفا، فكادوا ينسبونني إلى السحر ولم يصفوني عند أكابرهم بلغتهم إلا بالبحر أو الماء يحمض حتى يعوز الخل".(٧٧)

لقد عاش البيروني في الهند وتجول في أرجائها، وتعلم لغتها واتقنها، وحاور

---

٧٥ ـ ص ٣٠ Hindu Muslim Cultural relations

٧٦ ـ ص ٦٨ من الآثار الباقية (الترجمة الإنجليزية).

٧٧ ـ ١٧ ـ ١٨ تحقيق ما للهند.

علماءها، واختلط مع عوامها، وحضر أعيادها ومواسمها، وشاهد معابدها كما شهد مناسكها وقضى في كل ذلك ثلاثة عشر عاما أو ثلاثين عاما على اختلاف الروايات حتى أذهل علماء الهنود أنفسهم بسعة علمه، وعلو مرتبته، وكمال فهمه، وترجم إلى العربية بعض كتبهم كما ترجم إلى لغة الهند بعض التراث اليوناني والإسلامي حتى أظهر في النهاية كتابه "تحقيق ما للهند" مسك الختام على أبدع ما يكون المنهج. فلا غرابة في أن نجد هذا الكتاب يحتل المكانة الرائدة في التعريف بأديان الهند وفلسفاته وأن يكون كما يقول الدكتور ـ سيد حسين نصر ـ المصدر الوحيد العالم لمعرفة ثقافة الهند وعقائده طوال العصور الوسطى".(٧٨)

وما الذي يرجى من المنهج التاريخي حتى في مفهومه العلمي الحديث إلا أن يوقفك على موضوع البحث نشأة وتطورا، وتحليلا للعوامل والقوى التي لعبت دورها صغيرا كان أو كبيرا في تشكيله وتطويره؟

وماذا يراد من المنهج الأنتروبولوجي أكثر مما صنعه البيروني من تعلمه لغة القوم الذين يريد دراسة ثقافتهم ودينهم، وفلسفتهم وعلومهم، والعيش بينهم، وملاحظة أمورهم، وملاحقة خواصهم وعوامهم، وتأمل سلوكهم ومعاملاتهم، ودراسة طبائعهم وأخلاقهم، وبحث فلسفتهم ومبادئ ثقافتهم، والتعرف على نظمهم وأنماط حياتهم؟ كل هذا هو ما فعله البيروني ويشهد به كتابه "تحقيق ما للهند" ويتجلى لكل من يقرأه ويتأمله، فلا عجب أن نجد أحد الأنتروبولوجيين المسلمين المعاصرين ـ ألا وهو أكبر أحمد ـ يقول عن البيروني إنه: "أول عالم انتروبولوجي مسلم".(٧٩)

وقد أحسن الدكتور فتح الله مجتبى عندما قال:

"لقد وطن البيروني نفسه لكتابة "تحقيق ما للهند" بعد أن قام بزيارات مكثفة للأرجاء الجنوبية والغربية للهند، وبعد أن نذر ثلاثة عشر عاما كاملا لدراسة علوم الهند وأديانها ومدارسها الفلسفية في لغتها الأصلية، وليس هناك دولة متحضرة في ذلك الوقت وحتى بعده بقرون انتجت في الحياة الدينية والاجتماعية لشعوب غريبة عنها مثل هذا العمل الذي لا نظير له في سعة مجاله، وتنوع موضوعاته،

٧٨ـ ص ٥٠ Science and Civilzatio in Islam by Sayyed Hussain Nassr (Suhail Academy - Lahore).

٧٩ـ ص ١٠١ من: "Discovering Islam" by Akber S Ahmad (London - 1988)

ومنهج المقارنة الذي تبناه، وفوق هذا كله في بصيرة مؤلفه المحايدة والعميقة".[٨٠]

وإذا كان البيروني قد استخدم المنهج التاريخي والأنتروبولوجي بصورة علمية وربما بطريقة تتناسب مع المفهوم العلمي الحديث ولأول مرة في التاريخ، فإنه كذلك استخدم منهمج المقارنة بمفهومه العلمي الدقيق خير استخدام، مع فارق بينه وبين العامري فيه.

فالعامري يستخدم المقارنة ليتوصل به إلى أحقاق الحق، وإظهار بطلان الباطل، وهذا هو المنهج الإسلامي التقليدي بشأن هذا المنهج، أما البيروني فيكتفي بالمقارنة كوسيلة للتوصل إلى المعرفة الدقيقة، وإدراك أعمق، وفهم أوضح للموضوع قيد البحث، وإن لم يغب عن باله قضية التوصل إلى الحق، وهي قضية تركها للآخرين مكتفيا بتوفير المعلومات الضرورية لهم.

لقد عبر البروني نفسه عن هذا المنهج في مقدمة الكتاب تعبيرا واضحا حيث قال:

"فما وجدت من أصحاب كتب المقالات أحدا قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مداهنة سوى أبي العباس الإيرانشهري، إن لم يكن من جميع الأديان في شيء بل منفردا بمخترع له يدعو إليه. ولقد أحسن في حكاية ما عليه اليهود والنصارى وما يتضمنه التوراة والإنجيل، وبالغ في ذكر المانوية وما في كتبهم من خبر الملل المنقرضة، وحين بلغ فرقة الهند والشمنية[٨١] صاف سهمه عن الهدف وطاش في آخره إلى كتاب "زرقان" ونقل ما فيه إلى كتابه، وما لم ينقل منه فكأنه مسموع من عوام هاتين الطائفتين، ولما أعاد الأستاذ[٨٢] ـ أيده الله ـ مطالعة الكتب، ووجد الأمر فيها على الصورة المتقدمة حرص على تحرير ما عرفته من جهتهم ليكون نصرة لمن أراد مناقضتهم وذخيرة لمن رام مخالطتهم. وسأل ذلك، فعلته غير باهت على الخصم، ولا متحرج عن حكاية كلامه وإن باين الحق واستفظع سماعه عند أهله، فهو اعتقاده وهو أبصر به، وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل حتى استعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب

٨٠ ـ ص ٢١ من: Hindu Muslim Cultural Relations.

٨١ ـ يراد بالشمنية فرقة "البوذية".

٨٢ ـ المراد به السلطان محمود الغزنوي.

حكاية فأورد كلام الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتقريب المقارنة بينهم، فإن فلاسفتهم وإن تحروا التحقيق فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم عن رموز نحلتهم، ومواضعات ناموسهم، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم إلا أن يكون للصوفية أو لا حد أصناف النصارى لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد".[٨٣]

فلا حق للغرب في القول بأن المقارنة كمنهج علمي يتجاوز الإطار الكلامي الجدلي لم تعرف إلا في غرب العصرالحديث. ولعل الدكتور فتح الله مجتبى قد أحسن التعبير عن حياد البيروني العلمية، ودقته المنهجية، ونزاهته الموضوعية عندما قال:

"إن كتاب الهند ليس سردا تاريخيا لأراء الهنود الدينية والعلمية ولأخلاقهم وعاداتهم ولنظمهم الاجتماعية فحسب، فالبيروني حاول معالجة هذه القضايا بمنهج المقارنة وفي إطار عالمي، وعلى الرغم من أنه يدرك جيدا الاختلافات الموجودة بين الهندوس والمسلمين في عاداتهم، ولغاتهم، وطرق تفكيرهم، ومفاهيمهم الدينية والاجتماعية فإن أحكامه لم تتأثر بالميول الضيقة، وعلى طول كتابه يحاول أن يقارن المفاهيم الهندية بآراء فلاسفة اليونان، وفي بعض الأحيان بآراء المانوية ومفكري المسلمين والصوفية. وإن استخدام منهج المقارنة يسهل عليه شرح المشكلات الثقافية والفلسفية والدينية التي يناقشها، والبيروني في معالجاته ليس فقط مجرد عارض أو سارد، إنما في أغلب الأحيان يقدم وجهة نظره الخاصة المستقلة حول النظريات الفلسفية والعلمية ويناقش قيمة ملاحظته هو أيضا، ويحاول جاهدا أن يكون محايدا، ومجردا عن الأحكام المسبقة،، ولا يسمح لمواقفه الدينية الخاصة، وقناعاته أن تؤثر في أحكامه... أنه يحاول بصدق أن يقدم للعالم الإسلامي صورة صادقة للقيم الروحية الهندوسية، ولما حققوه في مجال التفكير الفلسفي ومساهماتهم في مختلف فروع المعرفة الإنسانية ليفتح الطريق أمام التفاهم المشترك، والحوار العلمي بين المجتمعين الإسلامي والهندوسي".[٨٤]

---

٨٣ ـ ص ٤ ٥ تحقيق ما للهند.

٨٤ ـ ٢٩ ـ ٣٠ Hindu Muslim Cultural Relations

ولعل الدوائر العلمية تستطيع أن تقدر هذه المنهجية الرائعة والرائدة لدى البيروني إذا وضعت في اعتبارها أن البيروني كتب ما كتب في وقت كان المسلمون فيه سادة العالم حيث لا قوة تخيفهم أو تقف في طريقهم، وكان هو نفسه في رعاية سلطان المسلمين محمود الغزنوي، وعلى الرغم من مضي ما يقرب من ألف عام فإن منهج البيروني لا يزال غضا طريا يعطي الكثير لأبناء اليوم والغد. وهذا ما يجعلني أقول، أن البيروني سيبقى مفخرة من مفاخر الإسلام، ومأثرة من مآثره في الجانب المنهجي لمقارنة الأديان، ورائدا عظيما من رواده، وعلما بارزا من أعلامه، ومعلمًا عظيما من معالمه.

لقد حاول الشهرستاني بعد البيروني بقليل أن يؤرخ لملل العالم ونحلها، ومذاهبها وفرقها في كتابه الشهير الذي عرف به "الملل والنحل". لكنه فيما يبدو لنا لم يستفد من منهج البيرني، فلم يضف إلى ما صنعه البيروني شيئا من الناحية المنهجية، بل أنه لم يستطيع أن يجارى البيروني على الأقل. نعم، ربما يكون الشهرستاني صاحب أول موسوعة للأديان في العالم كما يرى Eric J sharpe[٨٥] وهذا صحيح على الأقل فيما يتعلق بما كتب باللغة العربية، ولا شك أن في ذلك منقيه عظيمة للشهرستاني. فهو من هذه الناحية يمثل نقطة مهمة في تاريخ علم مقارنة الأديان لدى المسلمين، وكتابه يعتبر مصدرا مهما من مصادر هذا العلم في التراث الإسلامي. وقد يكون منهجه الذي بينه في مقدماته الملل والنحل معقولا إلى حد كبير وبخاصة إذا لوحظ الفارق الزمني بيننا وبينه، لكن القيمة المنهجية له ستتضاءل كثيرا إذا ما قورن بالبيروني الذي عاش قبله بقرن واحد فقط واستطاع من تقديم هذا المنهج العظيم الذي يمكن أن يقارن بمناهج العصر الحديث بدون أدنى تردد.

ابن حزم و منهج نقد النص:

ومع ابن حزم نأتي إلى علم آخر من أعلام الفكر الإسلامي ورائد آخر من رواد علم مقارنة الأديان في الإسلام. فهو رائد لا يقل عن العامري والبيروني مكانة

٨٥ـ ص ١١ .Eric J Sharpe "Comparative Religion A History (London - 1965)

وأهمية، بل يفوقهما شهرة وصيتا في هذا المجال.

وابن حزم موسوعة علمية ونادرة فكرية لم يعرف الزمان مثله إلا في القليل. لقد جال في فنون المعارف، وخاض في مجالات العلم الفكر، وأرتاض في ميادين القضاء والحكم، وحلق في سماء الأدب وترك في النهاية تراثا علميا هائلا.

ولا نهدف هنا ترجمة حياة ابن حزم فهو اشهر من أن يترجم له، وأظهر من أن يكتب عنه، وقد كتبت عنه في الشرق والغرب وفي لغات العالم المتعددة كتب كثيرة، وصنفت عنه وعن أعماله مدونات عديدة، إنما نهتم هنا فقط بالناحية المنهجية في جهود ابن حزم في مجال مقارنة الأديان وهي ناحية بارزة من نواحي شخصيته العلمية.[٨٦]

لقد اشتهر ابن حزم بموسوعته "الفصل في الملل والأهواء والنحل" أكثر من أي عمل آخر له.

وإذا كانت ظاهريته قد حجبت البعض من الانتفاع بجوانب فقهه في العصور الماضية فإن كتابه "الفصل" قد وقف ليضعه في مكانه اللائق به كأحد أعمدة علماء الأديان في الإسلام.[٨٧]

وإذا كان أبو الحسن العامري قد أبدع في منهج المقارنة والبيروني في المنهج التاريخي والأنتروبولوجي والمقارنة أيضا فإن ابن حزم قد أبدع ابداعا فيما يعرف عند علماء مقارنة الأديان في الغرب اليوم بمنهج نقد النص. وإذا كان الفيلسوف الهولندي "اسبينوزا" الذي لمع في القرن السابع عشر الميلادي رائد هذا النوع من الدراسة بين الغربيين ولم يعرفها علماء مقارنة الأديان في الغرب بتوسع إلا في هذا القرن وبخاصة في النصف الأخير منه حتى أصبح نقد الكتاب المقدس مادة علمية تدرس في الجامعات الغربية الكبيرة، فإن ابن حزم يعتبر رائد هذا النوع من

---

٨٦ ـ والحق أنه حتى في هذه الناحية المنهجية كتب أساتذة أفاضل كتبا قيمة، ويمكن أن نخص بالذكر كتاب الدكتور محمود حماية بعنوان "ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان" (ط أولى ١٩٨٣ دار المعارف ـ القاهرة) وكتاب الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي بعنوان: "منهج نقد النص بين ابن حزم واسبينوزا" (مطبعة المدينة ـ القاهرة ١٩٩٣).

٨٧ ـ لقد درس الدكتور الشرقاوي الجانب المنهجي عند ابن حزم ونقطة تميزه دراسة علمية مقارنة وإن كانت موجزة من ناحية ومقتصرة على اليهودية والنصرانية من ناحية أخرى.

البحوث في الفكر الإنساني كله على حد قول مؤرخ الأديان الفرنسي "لابوليه".[٨٨]

بل إن الدكتور الشرقاوي أوقفنا من خلال دراسته المقارنة لعمل ابن حزم واسبينوزا على نتائج غاية في الأهمية فيما يتعلق بإمكانية تأثير فكر ابن حزم المنهجي على اسبينوزا وبخاصة فيما يتعلق بالنقد الداخلي للنص، ويقول الدكتور الشرقاوي: "أما النقد الداخلي فقد جاء متشابها لديهما، بل متطابقا في أهم النقاط، ويمكن القول أن الفيلسوف في نقده الداخلي قد لخص وهذب، ونسق وعمق الحيثيات التي أوردها ابن حزم من قبل، ثم انتهى إلى نفس النتائج التي انتهى إليها ابن حزم، بل أنه صاغها أحيانا بنفس عبارة ابن حزم الأندلسي".[٨٩]

ومن الخطأ أن نفصل هذا المنهج الحزمي - منهج نقد النص - عن المنهج العقلي كما يذهب إليه البعض[٩٠] فإن ابن حزم في حقيقة الأمر يستخدم المنطق العقلي الصارم في تطبيق منهجه النقدي بطريقة يستحيل الوقوف أمامه والرد عليه. بل إن المنطق العقلي قاسم مشترك بين المناهج العلمية جميعا عند التحليل السليم.

ومن نافلة القول أن منهج نقد النص يستوجب كثيرا من المناهج العلمية الأخرى لاكمال وظيفته، فالناحية الخارجية لهذا المنهج وهو النقد الخارجي للنص لا يستساغ تطبيقها في صورة علمية ما لم يوظف المنهج التاريخي بادق معاينه، وقد يقتضى الأمر مناهج أخرى مساعدة. وأما النقد الداخلي للنصوص فهو في الحقيقة يستلزم مناهج تتوقف على طبيعة النص المنتقد ومعطياته. فمنهج التحليل اللغوي، والمنهج التحليلي والتركيبي وغيرها من المناهج العقلية العلمية المطلوبة في تحليل النص وفهمه من مقتضيات نقد النص داخليا. فمن هنا يتضح لنا أن هذا المنهج الذي أبدعه - ابن حزم وقدمه للفكر الإنساني ليس منهجا يرتاده كل واحد بسهولة، فهو منهج يقتضي نمطا خاصا من العقلية العلمية المستوعبة، والموسوعية الواعية. وقد كان ابن حزم بحق هذا النمط الخاص.

---

٨٨ - نقلا عن الدكتور محمد الشرقاوي في "منهج نقد النص ص ٥.

٨٩ - ص ٧٠ من نفس المرجع، وانظر الكتاب كاملاً لتقف على حيثيات هذه النتيجة العلمية.

٩٠ - ص ٣١ - ٣٧ من "الرد على النصارى"لأبي البقاء صالح الجعفري. تحقيق د. محمد محمد حسنانين - مكتبة وهبة ١٩٨٨. (مقدمة المحقق)

ولا يقلل من مكانة ابن حزم العظيمة في الفكر الإسلامي ولا من مقامه في مجال مقارنة الأديان أن نلاحظ على كتاباته أنها تتسم بالقسوة التي قد تتجاوز حد الاعتدال. وهي قسوة عرف بها ابن حزم حتى صارت مضرب الأمثال فيقال: "لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان". وقد يكون لابن حزم ظروفه، كما يمكن أن تكون له معاذيره[٩١]، لكن الحق أحق أن يتبع، والمسلم يظل دائما محافظا على اعتداله وتوازنه، وقد لا يكون ابن حزم خرج عن إطار قوله تعالى {**ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى**}[٩٢] لكن قد يخاف عليه أن يكون قد خرج من الإطار الذي يحدده القرآن الكريم: {**ولا تسبو الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم**}.[٩٣]

ولعل من الموضوعية أن نشير إلى أن هذه القسوة الحزمية المصحوبة بالحماس قد أوقعته أحيانا في بعض المعاذير. فعلى سبيل المثال نجد ابن احزم في نقده لمتن التوراة المزعومة يتخذ من مخالفتها للحقائق العلمية المقررة، واصطدامها مع الواقع المشهور احدى وجوه نقده. وهذا لا شك اتجاه علمي ممتاز قد أتي فيه ابن حزم بأشياء حديرة بالتقدير. إلا أنه في ظل حماسه المفرط وربما تحت التأثير العكسي للضلالات اليهودية على نفسه أو فكره قد ذهب في تطبيق هذا الاتجاه إلى ما ينبغي أن لا يذهب إليه. فنجده مثلا يتخذ من حديث التوراة عن الانهار ومصادرها ومصابها احدى وجوه مخالفة التوراة للعلم والواقع. فقد ورد في سفر التكوين عند الحديث عن الجنة التي وضع الله فيها آدم "وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد ـ هناك الحقل وحجر الجزع، واسم النهر الثاني "جيحون" وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث "حد اقل" وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع "الفرات".[٩٤]

ويرى ابن حزم أن هذه كذبة شنيعة تثبت وضعية توراتهم. إنها كذبة تخالف الواقع المعروف.[٩٥]

---

٩١ ـ انظر ما كتبه الدكتور محمود حماية في الدفاع عنه في كتابه ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان ص ١٤٠ وما بعدها.

٩٢ ـ المائدة: ٨.

٩٣ ـ الأنعام: ١٠٨.

٩٤ ـ ١٠ ـ ١٤ سفر التكوين / الاصحاح الثاني.

٩٥ ـ انظر الفصل ١٨/١ (دار المعرفة بيروت ٢/١٣٩٥).

لكننا إذا نظرنا في تراث الإسلام نجد في السنة النبوية الشريفة الصحيحة ما يشير إلى نفس القضية تقريبا. فنجد في الصحاح قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فجرت أربعة أنهار من الجنة: الفرات والنيل والسيحان وجيحان"[٩٦] وإذا كان علماء المسلمين لا يرون حرجا في هذا الحديث ويقبلونه على أنه من المتشابهات بدون أن يكذبوا السنة فلماذا لا نرضي بمثل هذا التفسير لليهود؟

وقل نفس الشيء بما يتعلق بنقد ابن حزم لحديث التوراة عن أماكن الذهب وهو حديث متصل بحديث الأنهار.

وعلى كل حال، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يقال فإن ابن حزم سيظل رائد الفكر الإنساني في استخدام منهج نقد النص سندا ومتنا في مجال مقارنة الأديان.

---

٩٦ - رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة ٢٦١/٢.

خاتمة

تبين لنا من خلال هذا العرض الموجز للجانب المنهجي عند أولئك الإعلام أنهم جميعا ابدعوا ابداعا في هذا الجانب. وللأسف أهمل المسلمون ترث آبائهم، وتركو التنقيب فيما تركه لهم اسلافهم في خدمة العلم والفكر، حتى ظنوا أن مقارنة الأديان علم غربي وإن مناهجها حديثة غير مسبوقة. لقد أوقفتنا نظرتنا الموجزة السابقة على كيف أن المسلمين سبقوا الأمم والحضارات في اصطناع مناهج علمية للتعامل مع الأديان، وكيف أن المجادلة بالحسنى قد عرفت طريقها إلى العالم من خلال مناهج علمية دقيقة تتسم بالموضوعية والنزاهة.

وإذا أدركنا قيمة هذه المناهج العلمية التي أشرنا إليها وتأملنا معها في ذلك التراث العلمي المتخصص الذي تركه علماء المسلمين في مجال مقارنة الأديان تيقنا أن مقارنة الأديان علم إسلامي أصيل تنبثق أصوله من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتنتشر فروعه على طول تاريخ الفكر الإسلامي، وله مناهجه العلمية، ومسالكه الموضوعية.

لكن هذا ينبغي ألا يصرفنا عن حقيقة مهمة وهي أن المناهج في العصر الحديث قد تطورت وتقدمت عما كانت عليه من قبل، وقد يكون المنهج في القديم والحديث واحدا، لكن وسائل استخدامه على الأقل تطورت تطورا كبيرا، بالاضافة إلى ظهور مناهج جديدة لم تكن معروفة لمن سبق عصرنا.

فإذا كان الواجب يقتضي منا أن نعمل على إحياء هذا العلم بأحياء تراثه واظهاره والتأريخ له ولمناهجه، ثم مواصلة السير على هداه إحقاقا للحق، وخدمة للعلم وقياما بواجب الدعوة والتزاما بحق الإنسانية علينا فإنه يستلزم منا كذلك أن نفيد مما جد في الميدان، واستحدث في المجال حتى ننفع عصرنا، ونكون ممن يسمع كلامه، ويحترم رأيه، ويؤخذ بعين الجد مذهبه.

والله الموفق إلى سواء السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولا: باللغة العربية:

١ - ابن حزم (أبو محمد): الفصل في الملل والأهواء والنحل" (دار المعرفة - بيروت ط ثانية ١٣٩٥ هـ).

٢ - ابن خلدون "المقدمة" (ط ايران).

٣ - ابن النديم "الفهرست" (ط ايران ١٣٩١/ ١٩٧١).

٤ - أبو الفتوح محمد التوانس "البيروني" (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة - ١٣٨٦/ ١٩٦٧).

٥ - أحمد بن حنبل "المسند".

٦ - أحمد عبد الحميد غراب "مقدمة تحقيقه لكتاب "الإعلام بمناقب الإسلام" (ط أولى ١٤٠٨/ ١٩٨٨ دار الإصالة الثقافة والنشر والإعلام - الرياض).

٧ - البيروني (أبو ريحان) "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة (دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الدكن الهند ١٣٧٧/١٩٥٧).

٩ - البيضاوي (ناصر الدين) "التفسير" مع حاشية الشيخ زادة" (طبعة مصورة على طبعة المكتبة الإسلامية تركيا).

١٠ - البوطي (محمد سعيد رمضان) "كبرى اليقينيات الكونية" (دار الفكر دمشق - ١٩٨٩).

١١ - الجرجاني (السيد الشريف علي) "الرسالة الشريفية" مع شرح عبد الرشيد الجونجوري (مطبعة حجازي - القاهرة ٩١٩٤٩).

١٢ - جلال محمد موسى: "منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية (دار الكتاب اللبناني - بيروت ط أول ١٩٧٢).

١٣ - الراغب الأصفهاني "المفردات في غريب القرآن" (تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - بيروت).

١٤ - العامري "الأمد على الأبد" تحقيق أي.ك. روشن (بيروت ط أولى دار الكندي ١٣٩٩/١٩٧٦).

١٥ ـ عبد العزيز حلمي "مقدمته الدراسية لكتاب "الرد الجميل" للغزالي (نشرة مجمع البحوث الإسلامية القاهرة ١٣٩٣/١٩٧٣).

١٦ ـ عضد الدين الإيجي: "المواقف" مع شرح الجرجاني (منشورات الشريف الرضى ـ مصورة على طبعة السعادة ١٩٠٧).

١٧ ـ محمد عبد الله الشرقاوي "منهج نقد النص بين ابن حزم واسبينوزا (مطبعة المدينة ـ القاهرة ١٩٩٣).

١٨ ـ محمد محمد حسانين "مقدمة التحقيق لكتاب "الرد على النصارى" لأبي البقاء صالح الجعفري (مطبعة وهبة ط أولى ١٤٠٩/١٩٨٨ القاهرة).

١٩ ـ محمود حماية ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان" (دارالمعارف ط أولي ١٩٨٣)

٢٠ ـ محي الدين شيخ زادة "حاشية على تفسير البيضاوي (مصورة على طبعة المكتبة الإسلامية ـ تركيا).

ثانيا: باللغة الإنجليزية:

1 - AL - Biruni - Commemorative. Volume (Editor. Hakim Muhammad Said) Ministry of Education. Government of Pakistan.

2 - Comparative Religion -: A History' E.J. Sharpe London (1975).

3 - Dialogue and Proclamation Pontifical Council for Inter Religious Dialogue - Vatican City, Pentecost - 1991).

4 - Discovering Islam - Akbar S. Ahmad Lodon - 1988.

5 - Encyclopedia of Religion.

6 - Hindu Muslim Cultural Relation, F. Mujtabbai. (Indaia - 1978).

7 - History of Muslim Philosophy. edited: M.M. Sharif, Karachi - 1983.

8 - Islam and Christianity in the Modern World , DR. F.R. Ansari W.F.I.M. - Karachi 2nd Edition - 1976).

9 - Islam and other faiths' Ismail R. Farooqi. in the Challenge of Islam (ED. Altaf Gauhar London - 1978).

10 - Meaning and truths in religion, W.A. Charistain (Princeton University Press - 1964).

11 - Philosophy of religion, By John hick (Fifth Indian Edition - 1988).

12 - Religions of Man, Huston smith (First Perennial library Ed-tion - 1965).

13 - Science and Civelization in Islam S.H. Nasr, (Suhail Acad-emy - Lahore 2nd Edition - 1987).

14 - Sceince of religion and the sociology of knowledge: Ninian Smart, (Pricne ton University Press - 1977).

15 - The chronlogy of ancient Nations (AL-Athar Al-Bakiya of Albiruni).

Translated and Edited, With Notes and Index by, DR. C. Edward Sachau. (London - 1879).

16 - The Compartive Study of religions (Edited with and Intro-duction by Joseph. M. Kitagrwa - Colomia University press - 1985).

17 - Towards World Community, (Edited Stanley J. Samartha Geneva - WCC 1975.

  